الخطاب الجليل
في
الأصول الأحمدية

لسلطان القلم، المجدد الأعظم

أحمد

المسيح الموعود، والمهدي المعهود
عليه وعلى متبوعه الصلاة والسلام

ترجمة

سيد زين العابدين ولي الله شاه

أستاذ تاريخ الأديان سابقاً في كلية صلاح الدين
ببيت المقدس، ونائب ناظر التأليف والإشاعة

واهتمت بطبعه وإشاعته
المكتبة الأحمدية

قاديان دار الأمان

گورداسپور (الهند)

فهرس الكتاب

الموضوع | الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة
ما الوحي الرباني	٢٥٤
سبب التفاضل فيما بين الرسل	٢٥٥
الفرق بين الحالة الموحى اليه وحالة المفتون	٢٥٧
مزية الاسلام باعتبار العرفان	٢٥٩
الاعلان بالامر الواقع بناء على الشهادة الذاتية	٢٦٠
الفرقان الحميد ذريعة العلم الكامل .	٢٦١
باب الوحي مفتوح للابد	٢٦٢
فطرة الله وسنة في شؤون الخلق	٢٦٣
الابتلاء ايضاً وسيلة من وسائل العرفان	٢٦٤
ماهية العلم بدون العمل والرياضة	٢٦٥
الاسوة الكاملة في حياة سيد الرسل	٢٦٧
اكبر خلق من اخلاق سيد الرسل	٢٦٩
الفارق بين التضحية الحقيقية والانتحار	٢٧١
المقام المحمود في الاخلاق الفاضلة وصاحبه	٢٧٢
حقيقة الغزوات الاسلامية	٢٧٤
اغلوطة فاحشة في تقدير الهداية الربانية	٢٧٥
رحمات الله ومظاهرها	»

الخطاب الجليل
في
الأصول الإسلامية

لخاتم الخلفاء والمجدد الاعظم حضرة

احمد

المسيح الموعود ، والمهدي المعهود
عليه وعلى متبوعه الصلاة والسلام

عربه

سيد زين العابدين ولى الله شاه
استاذ تاريخ الاديان سابقاً بكلية صلاح الدين
ببيت المقدس ، ونائب ناظر التأليف والاشاعة

بامر نظارة التأليف والاساعة
اهتمت بطبعه واساعته
المكتبة الاحمدية

قاديان دار الأمان

تاريخ الخطاب

لقد كانت خاتمة القرن التاسع عشر ـ فاتحة عصر جديد في جميع شؤونه وتطوراته . ومن أعظم حوادثه في القطر الهندي ـ انه تمخض عن تنازع شديد فيما بين لديانات المختلفة والمذاهب المتباينة ـ أو بعبارة أخرى ـ بين الحق والباطل والعلم والجهل

وكان المحرك الاول لهبوب زوبعة الاختلاف ـ هو المناداة بالحرية الدينية من جهة ، وقيام الدعوة الاحمدية من جهة أخرى ـ فكنت ترى الناس على اختلاف الطبقات والمراتب ـ في خصام شديد وعراك عنيد على قارعة الطرق وفي ساحة الأسواق والجوامع والكنائس والأندية والقاعات العمومية بل وفي كل مكان ضم اكثر من اثنين هذا ينادي باسم المخلص الفادي ، وذاك يجادل عن براهما الى غير ذلك . . وكان كل واحد ينفخ في نفيره ويضرب على

قيثارته لا يريد أن تسمع غير نغمته ـ فما أقبل يوم الا وأعلنت فيه مباحثة ، ولا أدبر ليل الا وسمع بمناقشة انجلت عن اقتتال شديد تهاوش فيه الناس بتحريض المناظرين وتناول بعضهم بعضاً بالسب والطعن والملاكمة ـ ثم انتهى الأمر بتداخل رجال الشرطة والقاء القبض على الجناة والمجرمين ، ولست أبالغ اذا قلت ان أرباب الديانات كانوا كلهم في تشابك هائل وازبئرار مخيف ، وكان كل واحد يود لو شد على غيره الخناق وقضى عليه اذ انه لا يعتقد اعتقاده ولا يقول قوله ، ومهما أراد الانسان أن يصور الحالة الواقعة فانه لا يستطيع أن يتصور هول ذلك المشهد المريع ، وفظاعة تلك القيامة التي أقامتها الملل على بعضها في أواخر القرن الغابر

وبينما الامر كذلك ـ اذ قام بعض ذوي العقول الراقية فاقترحوا عقد اجتماع ديني عام في « لاهور » عاصمة « بنجاب » يخطب فيه ذوو الكفاءة من زعماء الاديان كل حسب تعاليمه المقدسة ، فيسمعهم الناس بكل هدو ووقار ثم يحكمون بعد ذلك أيهم أصاب وجهة الصواب ، وأيهم

زاغ عن طريق الرشاد . وما كاد يذاع هذا الاقتراح حتى رحب به الناس أيما ترحيب وعدوه كخاتمة للمجادلات والمشاحنات وعينوا موعداً لذلك الاجتماع عطلة عيد الميلاد في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٩٦ ب . م وكان «أحمد» المسيح الموعود (عليه صلوات الله وسلامه) ممن انتدب من المسلمين لذلك الغرض ، وسنأتي على تعريب خطابه الذي ألقي اذ ذاك بين جم غفير من الاحزاب المتباينة المبادىء ، المتضاربة الآراء والأفكار ، وكان أجل خطاب من نوعه تلي على الناس يومئذ في أعظم اجتماع ديني التأم في الاقطار الهندية بل في أقطار العالم كله لاول مرة ، ولم يعد ينعقد اجتماع مثله يجلس فيه المسيحي والمسلم والبوذي والمجوسي جنباً لجنب يتبادلون فيه الآراء بصلح وسلام ، ويعترفون للحق بحرية ضمير وانشراح صدر ولكي لا يظن القارىء أن في وصفي هذا شيئاً من مغالاة المعتقد المتشيع ـ أنقل فيما يلي حرفياً ـ تقريظ مسيحي نشر بالصحيفة السابعة من الجريدة الانكليزية المسماة « سول ملتري غازت » بعددها الصادر بتاريخ ٢٩

كانون أول (ديسمبر) سنة ١٨٩٦ ب . م

" In the religious conference of Lahore held at the Mohammadan college building on the 26th, 27th and 28th, the following five subjects were elected as the main points to be discussed by the representatives of -the various religions.

1 On mental being its moral and spiritual welfare.

2 What does the human existence mean and how its aim can be gained ?

3 The day of resurrection.

4 What our deeds effect in this world and in the world to come ?

5 How to learn and come to attain Knowledge of the Supreme being ?

Particular interest centred in the lecture of Mirza Ghulam Ahmad of Qadian, a master in the apologetics of Islam. An immense gathering of all sects far and near assembled to hear the lecture, which, as the Mirza himself was unable to attend in person, was read by one of his able scholars, Munchi Abdul Karim Fasih (the eloquent) of Sialkot. The lecture on the 27th lasted for about three and a half hours and was listened to with rapt attention,

though so far it dealt only with the first question. The speaker promised to treat the remaining questions if time was allowed ; so the presidents and the excutive committee resolved to extend their sitting to the 29th."

تعريبه حرفيًّا

انه في المجمع الديني المنعقد بدار الكلية الاسلامية بمدينة « لاهور » يوم٢٦و٢٧و٢٨ تقررت الخمس مواضيع الآتية كمسائل رئيسية يتباحث فيها زعماء الديانات المختلفة:

(١) التكوين النفساني واصلاحه الاخلاقي والروحاني

(٢) ما معنى الحياة البشرية ، وكيف الوصول الى غايتها ؟

(٣) الحياة الأخرى

(٤) تأثير الاعمال في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى

(٥) العرفان الالهي وطريق التحصيل

ولقد كان خطاب « **احمد القادياني** » العلامة الشهير في علم الكلام الاسلامي - مركز الاعجاب الخاص . وقد توافد لاستماع خطابه جمع عظيم من أقاصي البلاد وأدانيها

وبما انه لم يستطع الحضور شخصياً ـ فقد تلا خطابه احد علمائه وهو عبـد الكريم الفصيح السيالكوتي استغرق ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وصغى اليه الناس بقلب خاشع مع انه لم يبحث الا في السؤال الاول . وقد وعد الخطيب بأن يتناول البحث في باقي الاسئلة اذا سمح له بالوقت الكافي ـ فقرر الرؤساء واللجنة التنفيذية اطالة الجلسة الى اليوم التاسع والعشرين

اليوم المشهود

رفعت الجلسة للاستراحة نصف ساعة بعد خطاب «بندت كورودهن» ولكن ـ بما أن الخطاب التالي كان للمندوب المسلم الشهير ـ فالجمهور الشيق لم يبرح اكثره مكانه ، وما ازفت الساعة الحادية والنصف حتى توارد الناس زرافات ووحدانا فضاقت القاعة على رحبها في بضع دقائق . وقد كان عدد الحاضرين يتراوح ما بين السبعة والثمانية آلاف نسمة على أقل تقدير ، وكان يضم بين جوانحه كثيراً من أرباب العلم والوجاهة من جميع الملل والمذاهب والبيئات . ولما لم تعد تلك القاعة الفسيحة مع ما أعد بها من المقاعد والكراسي والبسط والطنافس تكفي لذلك الجمع المحتشد ـ فقد ظل مئات الحاضرين وقوفاً وبينهم كثير من الامراء والعلماء والفقهاء والاطباء والاساتذة والحكام والمحامين والمديرين وغيرهم من جميع الطبقات والمراتب ، وقد قضوا كل تلك الساعات الطويلة

على أقدامهم بكل صبر ووقار . أما الهيئة الادارية فانها وان كانت قد قررت لذلك الخطاب ساعتين اثنتين فقط ـ الا انها لما رأت أن الخطاب المذكور قد أخذ بمجامع القلوب حتى أن الخطيب التالي وهو المولوي مبارك علي رأى ان يتنازل عن الوقت المخصص له عن طيب خاطر رغبة في تكملة الخطاب ، وان الجمهور الذي كان في اشتياق زائد لسماع ذلك الخطاب قد قابل ذلك الايثار بهتاف السرور والشكران ـ أجازت تلك الادارة باتفاقها مع اللجنة التعديلية اطالة الوقت وتوالي الجلسات حتى ينتهي ذلك الخطاب الذي لم تبل جدته ولم تنقص الرغبة في سماعه من أوله الى آخره ـ وهو منقول بنصه وفصه في الصحيفة ٧٩ من البيان المطبوع للمجمع الديني العام

ملخص التقريظ نقلا عن البيان المطبوع للمجمع الديني العام

	اسم الديانة	الخطيب	خلاصة ملاحظات رئيس الاحتفال
١	سناتن دهرم	بندت ايشرى داس	لا شيء
٢	الاسلام	مولوي محمد حسين البطالوي	لا شيء
٣	تياسوفي	المحامي رأي برودا كنته	لم يعتد النطق بالاوردية من قبل ـ فكانت لهجته متنكلزة، وقد صغى اليه الجميع بشوق ورغبة
٤	الاسلام	مولوي ثناء الله امرتسري	عساه راقكم بالفاظه المملوءة تحبباً . لذلك اشكره بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عنكم
٥	الآرية	بالو بيجارام چيترجي رئيس بلدية سكهر سابقاً	لقد اضحكنا كثيراً ما مزج به خطابه من الطرف المضحكة
٦	الزندقة	بندت كورودهن	لا شيء
٧	الاسلام	احمد المسيح الموعود	ليس من أحد الا وقد استحسن الخطاب العلمي لجنابه العالي ، ولم يبق انسان الا وأعجب به . اقبل المساء والخطاب يتلى ولما يتم جواب السؤال الاول ، وكان الحاضرون بلا استثناء كأنهم مسحورون حتى انهم طلبوا من الهيئة الادارية ان تخصص الجلسة الرابعة للخطاب المذكور

	اسم الديانة	الخطيب	خلاصة ملاحظات رئيس الاحتفال
٨	الاسلام	مولوي عبد الله طونكي	ابى ان يخطب لضيق الوقت مع انه زيد له فيه طبقاً لرغبته وقد اعطى وقته لمولوي محمد حسين حسب طلبه
٩	سكه	سردار جواهر سنكه كاتم اسرار جمعية « خالصه » لاهور	كانت محاضرة ذات معنى وفائدة ـ مختصرة موافقة للاصول السكهية مرغوب فيها من حيث العموم
١٠	النظام الكلي	رام جي داس	لا شيء
١١	برهمو سماج	لاله كاتشي رام كاتم اسرار جمعية « برهمو سماج »	كانت محاضرته مرغوبة لدى الجميع
١٢	سناتن دهرم	بندت كوپي ناته	اصغي اليه بالرغبة والشوق
١٣	المسيحية	مستر ماريسن جرنلست	لا شيء
١٤	المسيحية	امام الدين المصنف فاتح الكتاب المبين	ارتفعت ضده اصوات المقت والنفرة من قبل المسلمين
١٥	آريه سماج	المعلم دركاه پرشاد رئيس جمعية « آريه سماج » لاهور	لا شيء
١٦	سكه	سردار اجندر سنكه مدير جريدة خالصه بهادر لاهور	لا شيء

الملخص بلفظه :

ان شغف النـاس بالخطاب المذكور ، والحاحهم في اطالة الجلسات ، والاعتراف الجميل من جميع رؤساء وأعضاء اللجان وتقريرهم عقد الاجتماع الرابع ثم ازدحام المجتمعين في ذلك اليوم واصغاءهم للخطاب حتى النهاية بكل ارتياح طول مدة الخطابة ــ هذه كلها دلائل ناطقة بجلالة الخطاب وعظم وقعه في قلوب الجميع والفضل ما شهدت به الاعداء فواعجبا لقد أقر المسيحيون والمجوس بعظمة ذلك الخطاب ، وخجل المولويون ــ وجميعهم من ألد الاعـداء من أن يبرزوا على منصة الخطابة بعد خطاب حضرته عليه صلوات الله وسلامه. أما الجرائد الإنجابية التي ما كانت تنفك تطعن عليه وتحمل عليه الحملات الشعواء ــ فقد اضطرت في ذلك اليوم أن تملأ اعمدتها بحسن الثناء « على احمد المسيح الموعود » مع التنويه بالشكر الجميل لفضله العظيم على العالم الاسلامي ، لانه هو الذي قام في ذلك الوقت العصيب

وبث الروح في العظام النخرة البالية ، ونفخ الحياة في جسم الاسلام الهامد ، ودافع عن بيضة الدين دفاع الابطال الصناديد ، وأجرى في عالم الاديان تيار الافكار الذي جرف أباطيل الفيج الاعوج كما يجرف السيل المتدفق الغثاء . وسوف لا ينقضي هذا القرن حتى يقول اللاحقون للسابقين « ان هذا الذي أغمطتم احسانه واستصغرتم شأنه ـ انما كان فاتحة مستقبل زاهر ، وكان مصداقاً للنبأ القائل :

«هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونْ » (الصف : ٩)

فياليت التوفيق يدركني فانقل الى اللسان المبين جميع ما هنالك من مآثره الجلى لكي يكون اخواننا العرب على بصيرة كاملة من مكانته العليا لانهم مع الاسف لا يزالون في غمة من أمره وكان الاحرى بهم ان يتعرفوه قبل غيرهم . هذا ـ واني اتماماً لتاريخ الخطاب أعرب فيما يلي اعلان « احمد المسيح الموعود» عن غلبة خطابه لجميع

الخطب ، وافتضاح الديانات ببزوغ النور الاسلامي . وكان ذلك الاعلان بناء على الوحي الرباني قبل انعقاد مجمع الاديان بستة أيام

البشرى العظيمة الشأن

لطلاب الحق

انه في مجمع الاديان العظيم الذي سيلتئم بالمنتدى البلدي (Town Hall) بمدينة لاهور في ٢٦ و٢٧ و٢٨ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٩٦ - يتلى خطاب لي في كمالات القرآن المجيد واعجازه

ان مضمون الخطاب آية من آيات الله مسطوراً بتأييده الخاص ، وانه ليفوق المجهودات البشرية

يتضمن الخطاب من حقائق الفرقان المجيد ومعارفه ما يتجلى به كالشمس في رابعة النهار

ان القرآن المجيد كلام الله وكتاب رب العالمين ، فمن

يسمع خطابي من اوله الى آخره ويع ما يحويه من الاجوبة اوقن انه سينشأ في قلبه ايمان جديد ويشرق فيه نور عجيب فكأنما التي بين يديه تفسير لكلام الله جامع

ان خطابي مطهر من الترهات البشرية ، ومنزه عن شوائب الطرمذة والمماحكات ولم يحملني على هذا الاعلان الاّ الاشفاق المحض على بني آدم عسى أن يشاهدوا بهجة القرآن المجيد وبهاء جماله ، ويروا كيف يظلم خصماؤنا أنفسهم اذ يحبون الظلام ويغمطون هذا النور ! ! !

ولقد نبأني الله العليم بوحيه أن هذا هو الخطاب الذي سيظهر على الجميع ويغلب الكل ، وفيه من نور الحق والحكمة والعرفان ما سيخجل سناه الاحزاب اذا سمعوا الخطاب من أوله الى آخره . بلى ـ لتخجلن بين يدي نور الفرقان المجيد ولن تستطيع صحفها أن تظهر مثل كمالاته كائناً ما كانت تلك الاحزاب ـ مسيحية ، أو براهمة ، أو آرية ، أو سناتنية ـ ذلك « لان الله قد أراد ان يظهر في ذلك اليوم جلوة من لألاء كتابه المقدس »

ولقد رأيت في « عالم الكشف » ان قصري ضربته يد

من الغيب فاذا بنور ساطع قد بزغ منه وانبث فيما حوله وقد وقع شعاعه على يديّ ايضاً ـ وبينما انا كذلك واذا برجل واقف بقربي ينادي باعلى صوته الله اكبر ـ خربت خيبر » وتأويل هذا الكشف ان القصر ـ هو جناني الذي هو محل الانوار الربانية ، وان النور الساطع نور المعارف القرآنية ، وان خيبر ـ هي المذاهب الفاسدة المختلطة بشوائب الشرك والباطل ـ تلك التي اقامت الانسان مقام الله وانزلت صفات الخالق من عرشها الكامل . فلقد انبئت انه بعد نشر هذا الخطاب واشاعته حق الاشاعة ـ ينفضح كذب المذاهب الباطلة ، وتأخذ الحقيقة القرآنية في الانتشار فلا تفتأ تنتشر انتشاراً مطرداً متزايداً يوماً فيوماً الى ان تتم دائرتها . ثم انفصمت على حالة الكشف وانتقلت الى حالة الوحي فقيل لي باللسان العربي

« ان الله معك ، ان الله يقوم اينما قمت » وكان هذا الوحي وذاك الكشف عبارة عن الحماية الالهية التي سترافقني بمقام التبليغ في مجمع الاديان

لست اريد أن اكتب الآن اكثر من هذا ، وانما اطلب من الجميع ان يحضروا لا محالة يوم الاجتماع في لاهور ليسمعوا تلك المعارف ، وان كان في ذلك تضييع لاوقاتهم ـ فعسى ان يربحوا منه لايمانهم ولبصيرتهم ما لا يمكن ان يدور بخلدهم ـ والسلام على من اتبع الهدى

غلام احمد

قاديان في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٦

هذا هو البلاغ المبين والنبأ الحق الذي اشاعه احمد المسيح الموعود (عليه صلوات الله وسلامه) بالعدد العديد من النشرات في جميع انحاء البلاد الهندية قبل التئام المجمع الجحفل وتحدى اهل الاديان كلهم اجمعين الى حلبة السباق ثم غلبهم ونال من ايديهم « اكاليل الظفر البهي الباهر » فوضعه على هامة الاسلام ، وغادر الناس اجمعين شاخصة ابصارهم حيارى مبهورين

ان هذا هو الخبر اليقين ، والحديث الحق لم استعمل في التعبير عنه زخرف القول وتزويق الالفاظ ـ وحاشاني

ان افعل ذلك فاترك في تاريخي نقطة سوداء لدى الالوف من معارفي ـ وان انا الآ ناقل الحقيقة الناصعة المحفوظة في سجلات لم يبل الدهر اوراقها ، ولا بدّل النقل اخبارها وما هي في الحقيقة الا حديث اليوم نقلته للناس بحرفه نقلا خالصاً من جميع التصرفات اللفظية والمعنوية . نقلته بالامانة الكاملة التي يجب ان يرعاها الناقل في التعريب اللفظي دون ان يخدش اساوب التعبير المختص بكل لغة او يثلم سلاسة الكلمات التي يمتاز بها اللسان العربي عما سواه من الالسنة ، واني في ذلك ايضاً لم اتصرف الا بما كان من قبيل التقديم والتأخير والايجاز والتكرار دون الزيادة والتغيير في المعنى ـ او اضافة شيء من المترادفات مما تقتضيه البلاغة اللغوية والقوة المعنوية الموجودتان في الاصل المفقودتان في النقل اذا ما نقلته بحرفه ، وقد توخيت في هذا ايضاً جانب الاصل وقدمته على مكملات الفصاحة اللغوية احياناً كثيرة مخافة ان يزاد عليه شيء مما ليس فيه من المعاني خصوصاً وقد آنست من اصدقائي الرغبة في التعريب

الحرفي ولاحظت ان المعنى لا يعتل بدون الالحاق والاضافة وان الفصاحة لا تختل الا قليلاً مما يمكن الاغضاء عنه لسعة القواعد العربيــة وسماحة اخلاق الافاضل الذين مارسوا صناعة التعريب وعرفوا ما هنالك من الصعوبات.

اني لاشعر من نفسي ببعض مغامز الضعف وكان بمستطاعي ان ازيله ولـكني لم افعل ذلك حباً بكرامة العمل العظيم وسعياً وراء الامل الذي نيط بي. فارجو من الله تعالى العفو والمعافاة ، ومن سادتي الـكرام غض الطرف عما فرطت فيه — وجل رجائي منهم ان يطالعوا هذا الـكتاب من اوله الى آخره حتى اذا انبعثت من نفوسهم عواطف الشكر والامتنان — فليصلوا فيما يصلون به لسيد الرسل — على مولاي **احمد المسيح الموعود** صلوات الرحمـة والسلام وليدعوا بخير لاساتذتي الذين احسنوا الي بان علموني هذا اللسان حتى تمكنت من تعريب مثل هـذا الخطاب واخص منهم بالذكر فضيلة الشيخ هاشم الشريف الخليلي البيروتي استاذ الحقوق ، وسعادة العلامـة الشيخ بشير

الغزي الحلبي العضو في مجلس الاعيان العثماني ، وكذلك فضيلة الشيخ صالح الرافعي الطرابلسي البيروتي استاذ الآداب العربية بالمدرسة السلطانية ـ فانني لا ازال اذكر تلك الساعات الطوال التي كانوا يصرفونها في التدريس لي ليلاً والليل داج والمطر منهمر والبرد قارس والنعاس يتعثر في اذياله ، فكم دقت الساعة الثانية عشرة وهم يجدون بي حريصين على تعامي باسرع ما يكون وكانوا لا يبتغون بذلك مني جزاءً ولا شكوراً . وكانوا يقولون انهم يتفرسون فيّ الخير ، واری ان لا خير احب اليّ اليوم من هذه الخدمة التي انا بصددها ـ فان وفقني الله تعالى لتعريب جميع مؤلفات مولاي « **احمد المسيح الموعود** » عليه صلوات الله وسلامه ـ فذاك اكبر مناي والمنى في سبيله روح وريحان ـ « نعم ان المنى في سبيله روح وريحان »

زين العابدين ولي الله

نبذة من حياة

احمد المسيح الموعود

علیه الصلاة والسلام

لما انتهيت من كتابة تاريخ هذا الخطاب ـ أشير عليّ بأن اضيف اليه نبـذة من تاريخ حياة احمد المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام فاقول : انه ابن المرحوم ميرزا غلام مرتضى رئيس « قاديان » ومن سلالة اسرة اثيلة في النبل والشرف. كانت يوماً من الايام الخالية حاكمة في خوراسان وتنسب الى قبيلة « برلاس » عم السلطان تيمور الغازي ، ويقول « سر ليبيل كريفن » في كتابه المعروف باسم « رئيسان بنجاب » ما تعريبه :

في السنة الاخيرة من عهد السلطان « بابر » اي في اواخر سنة ١٥٣٠ هاجر من مدينة « سمرقند » مغولي اسمه « هادي بك » واستوطن بقعة « كورداسبور » من القطر

البنجابي . وبما انه كان حائزاً لشيء من العلم ـ فقد عيّن قاضياً او حاكماً لسبعين قرية فيما يجاور « قاديان » ويقال انه وضع اساس هذه القصبة وسماها « اسلام پور » ثم اشتهرت هذه القصبة المذكورة باسم « اسلام پور قاضي » ثم لم يبق النحت والتغيير من الاسم الاصلي الا قاضي وقاضيان

ويقول حضرة المسيح الموعود في كتابه « لجة النور » وكتاب « البريه » بعد سرد قائمة النسب وايصاله الى ميرزا محمد سلطان ابن ميرزا عبد الهادي بك : وبعد هذا (الاسم) لا اعلم اسماء آبائي المتقدمين ولكنني قرأت في بعض الكتب وبها ذكر آبائي ـ انهم كانوا من سمرقند وكانوا من بيت السلطنة والامارة ، ثم اضطروا للهجرة من جراء التنافرات القوميـة ، ودخل ارض بنجاب ميرزا عبد الهادي بك كرئيس مكرم مع مائتي نفر من الاقرباء والاحباب والاعوان وانتظموا في سلك امراء الملك الكريم «بابر» وكان الميرزا المذكور على جانب عظيم من الفضل والعلم

ثم يقول في كتابه « البرية » :

منذ سبع او ثماني عشرة سنة ـ اطلعني الله بوحيه المتواتر (اي قبل الدعوة بزمن طويل) ان آبائي من اصل فارسي وقد ذكرت جميع تلك المخاطبات الربانية في براهين احمدية (كتابه المشهور) في ذلك الوقت (اي وقت تصنيفه قبل الدعوة) ومن تلك المخاطبات « خذوا التوحيد التوحيد يا ابناء فارس » بلفظه ، وفيها « لو كان الايمان معلقاً بالثريا لناله رجل من فارس » بلفظه ، ومنها « أن الذين كفروا ردّ عليهم رجل من فارس شكر الله سعيه » بلفظه راجع الصفحة ١٣٤ منه . ويقول « كتبت مراراً عن عائلتي انها من اسرة حاكمة اتت الهند من سمرقند ، وكانت الاسرة خليطاً مركباً من بني فارس وبني فاطمة ـ او بعبارة أخرى ـ من الاسرة المغولية والاسرة الشريفة (يعني الشريف المصطلح عليه اليوم في تسمية بني فاطمة رضي الله عنها بنت سيد الرسل) . . . . . لانه هكذا جرت عادة الله مع هذه العائلة أن يكنّ بعض الجدات من العترة الطاهرة النبوية المعروفة باسم السيد . . . . الخ

ولد ﷺ المسيح الموعود ـ في صبيحة يوم الجمعة من اواخر سنة ١٢٥٢ هجرية ولم تكن المدارس اذ ذاك على ما هي عليه اليوم فتعلم حسب عادة اولاد الرؤساء وقد ذكر «ﷺ» المسيح الموعود عن نفسه ـ انه لما كان في السادسة او السابعة من عمره ـ استخدم له ابوه معلماً يعرف الفارسية علمه القرآن الشريف وبعضاً من الكتب الفارسية وكان اسم هذا المعلم الصالح« فضل الهي»

ولما كان في العاشرة ـ استخدم لتعليمه معلم عارف بالعربية وكان اسمه « فضل احمد » ـ فكان اسماهما احسن فأل لبداية تربيته ، وكان هذا الاستاذ الفاضل التقي يعلمه عن شوق واجتهاد ـ فقرأ عليه بعض الكتب في علم النحو والصرف ، ولما بلغ السابعة او الثامنة عشرة ـ تلقى الدروس على معلم آخر اسمه «كل على شاه» كان قد استخدمه والده ايضاً لاجل تعليمه فقرأ عليه النحو والمنطق والحكمة وغيرها من العلوم الرائجة اذ ذاك ، ثم درس على ابيه بعضاً من الكتب في علم الطب اذ كان طبيباً حاذقاً في فن الطبابة ؛

وكان اذ ذاك شديد الاستغراق في المطالعة والدرس كأنه ما كان في الدنيا ، قال — وكان والدي يمنعني دائما عن ذلك مخافة ان تعتل صحتي واملاً في ان اشاركه في بلبال الحياة الدنيا ومشاغلها (الصحيفة ١٤٩ من كتاب البريه)

هذا ما يتعلق بحياته العائلية وتعليمه الابتدائي . واما سيرته — فقد كان مشهوداً له بالورع والزهد والتصوف والاعتزال عن الناس حتى كان والده يرثي لحاله ويندب حظه بقوله « انه ملاّ » ، « حلس المسجد » ، « المتوكل » وما اشبه ذلك من الكلمات التي معناها في المحاورة الدارجة انه غير مرجو في مستقبل حياته

واما تاريخ ظهوره فيبتدىء فيما بين العام ١٨٧٥ و١٨٨٠ ب . م. اذ قامت فتنة التبشير المسيحي باشدها في الهند ، واخذت الفئة المسيحية ترلق الاسلام بسهام الانتقادات والاعتراضات ، وتذكر « سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » بالسب والشتم والقذف والطعن ، ولم تترك وسيلة الا تذرعت بها في جرح العواطف الاسلامية من حيث

الكذب والافتراء والتمويه والتدجيل ، وساعدتها على ذلك كله ـ الفئة المجوسية الآرية ـ فقد كانت هاتان الفئتان اعظم بلاء من جميع البلايا التي ابتليت بها الامة الاسلامية منذ نشأتها . فكان من جرائها ما ذكره « احمد » نفسه (عليه وعلى متبوعه الصلاة) في خطبة عربية[1] ارتجلها صبيحة عيد الاضحى في الخامس والعشرين من شهر اغسطس سنة ١٩٠١ ب. م. فقال عن المسلمين الذين وقعوا في شرك التبشير المسيحي :

« ومنهم قوم مالوا الى الفلسفة التي اشاعوها وفي امر الدين يتساهلون ، وكم من كلمة تخرج من افواههم وهم يحقرون دين الله ولا يبالون ، ومنهم قوم اكملوا امر الضلالة وارتدوا عن الاسلام وعادوه عن جهالة وكتبوا كتباً في الرد عليه وشتموا رسول الله وصالوا على عرضه وتلك افواج في هـذه البلاد بعد ما كانوا يسلمون ـ فتم

---

(٢) الخطبة المذكورة مشهورة باسم « الخطبة الالهامية » لان احمد رحمه الله القاها بامر الله

ما اشير اليه في الفاتحة فانا لله وانا اليه راجعون . . . .
« واول نبأ ظهر من انباء ام الكتاب هو تنصر المسلمين ونشتمهم وصولهم كالكاب كما تشهدون . . . . . الخ »

هذا هو الذي اقلق فؤاد ذلك الرجل المسلم القابع اذ ذاك في زاوية من زوايا قرية « قاديان » بولاية « بنجاب » واضطرب من اجله اضطراباً شديداً اهتزت له اركان المسيحية والمجوسية من تواعدها ، والف كتاباً ضخماً في اربعة أجزاء كبيرة سماه « براهين احمديه » وبيّن فيه بالادلة المعقولة الواضحة أن الاسلام هو الغاية الاخلاقية الكمالية للبشر ، وان محمداً هو الاسوة الكاملة في الاخلاق الفاضلة ، وان دينه دين حي لا تزال آثار الحياة الروحانية موجودة في اتباعه (صلى الله عليه وسلم) دون سواهم ، وانه بفضل اتباعه الدين الاسلامي واقتفائه الاثر المحمدى مشرف بالمخاطبات الالهية . وقد ذكر في آخر الجزء الرابع منه طرفاً من تلك المحادثات الربانية قائلاً ما تعريبه :

« والمقصود ايضاً من ذكر هذه المكاشفات

والمخاطبات (علاوة على بيان حقيقتها) تثبيت قلوب المؤمنين وتقوية ايمانهم وليعلموا حق العلم أن دين الاسلام هو الصراط المستقيم الموصل الانسان الى الله تعالى وانه لا يوجد تحت اديم السماء الا كتاب واحد ونبي واحد هما مصدر الخير كله واعني بهما القرآن العظيم وسيدنا محمد المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الذي هو اعلى وافضل من الاصفياء جميعهم وهو اتم واكمل الرسل قاطبة وهو خاتم الانبياء وخير الناس كلهم

وبفضل الاقتداء به ـ يصل الانسان الى ربه ويلاقيه بعد أن يخرج من ظلمات العادات ودياجير الضلالات وبفضل اطاعته ـ تبدو على الانسان آثار النجاة الحقيقية والرحمة الربانية في هذه الحياة الدنيا

ان القرآن المجيد ـ هو المنبع لجميع الهدايات والمعارف ، وبه يرتد الانسان بصيراً ، ويتزكى من الآثام والذنوب والالم البشرية ، ويبلغ مقام الايقان والعرفان الكاملين بعد ان يمزق حجب الغفلة ويخرق اغشية الجهالة

أن الكشوف والمحادثات الربانية المذكورة في هذا الكتاب - تشتمل على مغيبات الامور التي لا يستطيع البشر أن يتجاسر على مثلها ، فهي لذلك حجة بالغة داحضة للاعداء الذين يمثلون الاسلام اسمج تمثيل في اعين الناس بانتقاداتهم ، ويضيقون على المسلمين مجال النطق والكلام ويضلون منهم خلقاً كثيراً

اعلموا يقيناً ان المبشرات التي تشرفت بها في عزاتي ووحدتي سوف تتم بمرأى الجيل الحاضر ومسمعهم وتثبت بالحق ان الاسلام هو الدين الحي لا يبرح يوصل اهله الى مقام المعرفة والوصال قبل مفارقتهم هذا العالم كما يبشر به القرآن المجيد في قوله :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ . . . . . . الخ » (راجع حاشية الصحيفة ٤٦٧ من الجزء الرابع من براهين احمدية الطبعة الثانية)

وها انا اذكر نتفة من بعض المحادثات المندرجة فيه. وهي من جملة المحادثات التي شُرّف بها منذ سنة ١٨٦٨ ب . م . اي قبل تأليف الكتاب المذكور بزمن طويل. وكان « احمد عليه السلام » استشهد بها فيه عند البحث عن تأثير الدين الاسلامي في المسلم الحقيقي باعتبار علاقته بالله تعالى وهي كما يلي :

« بوركت يا احمد وكان ما بارك الله فيك حقاً فيك » الصحيفة ٤٨٦ ـ « انك بمنزلة توحيدي وتفريدي فحان ان تعان وتعرف بين الناس ، هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » الصحيفة ٤٨٩ « سبحان الله تبارك وتعالى زاد مجدك ، ينقطع اباؤك ويبدء بك » (وهكذا اتم الامر بتمامه) صحيفة ٤٩٠

« بشرى لك يا احمدي انت مرادي ومعي ، غرست كرامتك بيدي » صحيفة ٥٠٥

« يظلك ربك ويغيثك ويرحمك ، وان لم يعصمك الناس فيعصمك الله من عنده ، يعصمك الله من عنده

ان لم يعصمك الناس » ٥١٠

(فقد مكر اعداؤه لقتله واعدامه وحبسه وتوهينه ولكنهم خابت مساعيهم بأجمعها)

« يخوفونك من دونه ، ائمة الكفر لا تخف انك انت الاعلى ، ينصرك الله في مواطن » الصحيفة ٥٦٠

« انك اليوم لدينا مكين امين وان عليك رحمتي في الدنيا والدين وانك من المنصورين » صحيفة ٥٠٤

« يا عبد القادر اني معك اسمع وارى . غرست لك بيدي رحمتي وقدرتي ، ونجيناك من الغم وفتناك فتونا فحان ان تعان وتعرف بين الناس ـ يأتيك من كل فج عميق ، يأتون من كل فج عميق ، ينصرك الله من عنده ، نوحيهم من السماء لا مبدل لكلمات الله » صحيفة ٢٤١ من براهين احمديه ـ المطبوعة سنة ١٨٨٠ بطبعة مفيد هند ـ امرتسار

وكثيراً ما خوطب باسماء الانبياء عليهم السلام كما في

وحيه « تلطف بالناس أنت فيهم بمنزلة موسى واصبر على ما يقولون »

ويقول احمد عليه السلام في تأويله :

« وبما أن علماء الامة المحمدية كأنبياء بني اسرائيل فقد شبهني الله تعالى بموسى أيضاً وأوصاني بصبره وتحمله وان هي الا نعمة أعطيتها بفضل بركات سيد الرسل وفيوضه الروحانية التي لا ينفك يتشرف بها خاصة أفراد أمته ـ اللهم صلّ على محمد وآل محمد . . . » الخ الصحيفة

ومثل الوحي المذكور ـ المخاطبة الآتية :

« انك لذو حظ عظيم . أنت محدث الله . فيك مادة فاروقيـة ـ ص ٥٨٨ . وكذلك مننا على يوسف لنصرف عنه السوء والفحشاء . ولتنـذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » ـ ٥٥٥

« سلام عليك يا ابراهيم . انك اليوم لدينـا مكين أمين ذو عقل متين ، يا داود عامل الناس برفق واحسان

واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها ـ ٥٥٨ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنـة . نفخت فيك من لدني روح الصدق » ـ ٤٩٦

« ياعيسى اني متوفيك ورافعك اليّ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة . ثلة من الاولين وثلة من الآخرين » ٥٥٦

وكثيراً ما لقب ونودي باسم المسيح (عليه السلام) واجتمع معه في رؤياه على مائدة واحدة يؤاكله ويؤانسه ويقول في الصحيفة ٤٩٨ من الجزء الرابع من « براهين أحمدية » عنـد تفسير الآية الكريمة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ـ ما معناه

« ان الآية تبشرنا بغلبة الدين الاسلامي على الاديان كلها وسيتم هذا الوعد عند بعثة المسيح[1] الثانية وفي زمنه ينتشر الاسلام في أرجاء العالم كلها كما جاء خبره في

---

(١) كان يعتقد حينئذ بحياة المسيح الجسدية ونزوله من السماء كاعتقاد غيره من المسلمين

الاحاديث أيضاً وظهر من كثرة ما خاطبني الله باسم المسيح انني أشبهه في حلمي وتواضعي وتوكلي وايثاري ، وان هناك مماثلة تامة بين فطرتي وفطرته كأننا نحن ثمرة شجرة واحدة ذلك بان المسيح كان من اتباع نبي كبير أعني موسى ، وانني كذلك من عشاق سيد الرسل وخدام اكمل الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا بشرني الله تعالى بانه سيمكنني من الخدمة الاسلامية بالبراهين النيرة والحجج القاطعة ولا أدري متى يكون ذلك » من الصحيفة ٤٩٨ ـ ٤٩٩

يمكنكم أن تلمحوا مما مرّ ان احمد المذكور (عليه صلوات الله) كان من النعمة الربانية على حظ موفور قبل تأليفه براهين احمدية ـ ذلك الكتاب الضخم الذي أتى بانقلاب عظيم في أفكار الشعب الاسلامي وغيره من الهنود . انكم لا تقفون على نزر يسير من أهمية الكتاب المذكور وسعة نظر الكاتب وعمق فكره في الفلسفة الاسلامية والمعرفة الاجتماعية الا اذا درستم الكتاب

بانفسكم . ولست أستطيع أن ألخص مضمونه في هـذه النبذة فانه يحتوي على نيف والفي صحيفة من القطع الكبير غير انني أقتبس مما قرظ به الكتاب المذكور بعض مشاهير العلماء الهنديين الذين أصبحوا أخيراً من ألد الاعداء وأشد المعاندين له بعد أن كانوا أول الناس تعظيماً له واكثرهم اعترافاً بفضله واعجاباً بعلمه . فمن هؤلاء العلماء ـ المولوي محمد حسين البطالوي مدير مجلة « اشاعت السنّه » وهو الذي كان يعرف احمد منـذ حداثة سنه بالتقوى والورع والشغف بالعلم والميـل الى الانزواء والاعتزال . ومما قال بالمجلة المذكورة :

« طالعنا الاجزاء الاربعة من براهين أحمدية وقبل أن نبدي في مواضيعه رأياً ـ حري بنا أن نلخص أهم مقاصده لكي تنجلي لكم محاسنه من تلقاء نفسها طبقاً للمثل الفارسي القـائل : « مشك آنست كه خود ببوئد ، نه كه عطار بگوئد » أي ـ المسك هو الذي يفوح بنفسه لا الذي يصفه العطار »

ولكي لا يعد ما تقوله عنه من قبيل المبالغات الشرقية . . . . وبعد أن أتى على خلاصة الكتاب في عدة أعداد من المجلة ـ اختتم تقريظه بما تعريبه :

« والآن ـ نظهر رأينا بالاختصار التام وبلا مبالغة : ان الكتاب المذكور لم يؤلف نظيره قط في العالم الاسلامي ولا علم لنا بمستقبل الايام ـ لعل الله ان يحدث بعد ذلك من أمره شيئاً . وان مؤلفه أيضاً لعديم المثال ككتابه اذ قلّ ان يأتي الزمان بمثيله في الثبات الغريب للخدمة الاسلامية ونصرة الدين الحق بالنفس والنفيس والقلم واللسان والحال والقال . ومن يحمل قولنا هذا على الاعتساف ـ فليأت بقرينه الذي يقدر ان يبين الاسلام كما بينه هو ، ويرد كما رد على أهل الملل الباطلة مطاعنهم العمياء وحملاتهم الشعواء على الاسلام ونبيه المعصوم ـ رد كل ذلك بقوة البراهين الناطقة التي لم يعطها أحد من قبل . . . . . »

وبعد هذا التقريظ الطويل ـ أخذ المولوي المذكور

في رد اقوال بعض المسلمين الواهيـة فيما يتعلق بامكان المخاطبة الالهية بعد خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم

وهكذا قام عدة علماء وصحفيين فقرظوا الكتاب باحسن ما لديهم من الثناء الجميل ، ونال احمد بكتابه هذا شهرة عظيمة في الاقطار الهندية كلها

هذا ـ ومن غريب ما حصل من انقلاب أولئك المولويين وغيرهم فيما بعد ـ انهم أظهروا لأحمد أشـد العداء ، وأثاروا ضده فتنة عمياء ، وتذرعوا بجميع المكائد والحيل الممكنة لقتله وسجنه وتعذيبـه فاذاقوه أنواع العـذاب والاهانة ولم يعودوا من ذلك كله الا بالخيبة والخسران هم ومن والاهم ، فاخذوا يذيعون ضده وأصحابه فتاوي التكفير والتضليل أوقدوا بها نيران العداوة والبغضاء في دار السلام ، وأثاروا بهـا فتنة عظمى فرقت بين المرء وزوجه ، والوالد وولده ـ فامست ساحة العشيرة المطمئنة ومصطبة المنـاداة الصافية كساحة الوغى فما كنت ترى الا نابا يقرع نابا ، وعينا تنظر شزرا ، وصدرا يغلي حقدا

وحنقاً ، ولساناً حديداً يعج بذاءً وفحشاً ـ فكم من أتباعه من سيق الى المحاكم ، وكم منهم من أخرج من دياره ، وكم عذب ظلماً وعدواناً بسبب فتاويهم

لماذا هذا الهياج الفجائي كله ضد **احمد** عليه السلام في سنة ١٨٩٠ ب . م ـ أي بعد اشاعته «براهين أحمدية» بعشر سنوات ؟ وأي شيء جديد أتاه فاغضب من كانوا يحبونه ويوقرونه وكانوا يعدونه من الاتقياء الاصفياء ؟ حقاً انه لم يأت بشيء غريب سوى انه أعلن بين الناس

دعوى احمد

« انني مجدد هذا الزمان ، ومصلح هذا الجيل ، وانني على مقام الختم من الولاية كما كان سيدي المصطفى على مقام الختم من النبوة ، وانه هو خاتم الانبياء وأنا خاتم الاولياء . لا وليّ بعدي الا الذي هو مني وعلى عهدي ، واني ارسلت من ربي بكل قوة وبركة وعزة وان قدمي هذه على منارةٍ ختم عليها كل رفعة ـ فاتقوا الله ايها

الفتيان ، واعرفوني وأطيعوني ولا تموتوا بالعصيان . واني أنا المسيح الموعود نزوله من السماء . أما المسيح الاسرائيلي فقد مات وخلا . والله صدقكم الوعد فأين تذهبون من وعده وتنحتون قصصاً شتى ، وأي فائدة لكم في حياة المسيح ايها النوكي غير انكم تنصرون به النصارى ؟ أفلا تنظرون الى الزمان وقد نزلت بكم بلية عظمى وتنصر فوج من قومكم وأحبائكم ، وهلكت البلاد والعباد واهتز عرش الرحمن لما نزل فقضى ما قضى ؟ ولو أراد الله أن ينزل من السماء كما زعمتم لكان خيراً لكم ان ينزل نبيكم المصطفى ما لكم تدوسون قول الله باقدامكم ؟ ألا تموتون ؟ أو تتركون سدى ؟ ثم انكم لتذكرونني كما تذكر الكفار وتقولون « اقتلوه ان استطعتم » وتكتبون الفتاوى ـ وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله وان معي لحفظة يحفظونني من العداء ، واجمعوا كيدكم ثم انظروا هل يقع الكيد الا على من جفا ؟ وعسى ان تحسبوا رجلا كاذباً وهو صادق فيما ادعى . فلا تميلوا كل الميل ومن ترك

التقوى فقد هوى . أرأيتم ان كنت من عند الله وقد كذبتم فما بال من اهتدى . أو أنتم تكرهون ان يموت عبد الله عيسى ولا نفع لكم في حياته ولله في موته مآرب عظمى . أله شركة في السماء مع ربنا فلا يبرح مقامه ولا يتدلى ؟ فلا تحاربوا الله بجهلكم وصلوا على نبيكم المصطفى وهو الوصلة بين الله وخلقه وقاب قوسين أو أدنى . أسمعتم مني مالم يسمعكم القرآن أو رأيتم عيسى في السماء فكبر عليكم ان تكذبوا أعينكم أو ظننتم ظناً . وان الظن لا يغني من الحق شيئاً وقد علمتم ان القرآن أهلكه وتوفى . فبأي حديث تؤمنون بعده وتكفرون بما أنزل الله وأوحى ؟ أتتركون اليقين لظن أهلك قبلكم قوماً واردى . فيا حسرة على الذين يقولون انا نحن العلماء - انهم ما صاروا من أنصاري - بل كانوا اول من آذى . . . . . . »

هذا هو الاعتقاد الغريب الذي اثار الشعب الهندي ضده بعد أن كان يقر له بالكعب الأعلى في العلم والعقل والتقوى وكان يتفرس فيه مجدداً مصلحاً صالحاً لزمانهم

وما أمرهم هذا ببدع فقد مضى مثلهم في الاولين :

« يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » ويا ليتهم أمعنوا ـ ولو قليلاً ـ النظر الصادق الصافي الخالي من غبار التعصب والجهل فيما ادلى اليهم من البينات والشواهد في ابطال اعتقادهم بحياة المسيح الجسدية واثباته موته ، ولو انهم فعلوا لأبصروا الحق واضحاً جلياً

وخلاصة القول ان « احمد المسيح الموعود » عليه الصلاة والسلام جاهد في سبيل القضية الاسلامية طول حياته وأبلى البلاء الحسن في الجهاد المقدس ضد الباطل ومن يطالع مؤلفاته وخطبه التي تعد بمائة ونيف ـ يعلم أن حضرته ضرب بريشة براعته أوتار القلب البشري واسمع هذا الانسان أنغاماً تأتلف مع مقتضيات فطرته، وتختلف

---

(١) اقتبست نص العبارات من الخطبة الالهامية العربية التي ارتجلها يوم عيد الاضحى وسبق ذكرها فلا أجد معه حاجة لتعريب دعواه المعلنة في البلاغات الاوردية

عن أنغام هـذا العصر الفاسد المغرور بفلسفته المخدوع بزخرف الحياة الدنيا ، الساهي عما تخبئه له في طياتها من الويل العميم والخراب الشامل ، ويرى انه من اولئك الافذاذ الذين يبعثهم الله في الامم بعد الاجيال الطويلة كي يهدوا للبشر طريق الحياة الطيبة ، ويهدموا الاوهام والاضاليـل ، ويمزقوا حجب الظلمات المتكاثفة الحائلة بينهم وبين الغاية المثلى

وكما كان لـكل رسول للهداية اعداء من عبيد الاوهام واسرى الخيالات الباطلة ـ كذلك كان لحضرته ايضاً من هذا الجنس الخبيث زمرة فاجرة وخصوم الداء ما ادخروا وسعاً في تكذيبه والالحاد به وتمثيله أشنع تمثيل بالزور والبهتان المبين ، واني ان شاء الله لآتٍ على مفترياتهم وترهاتهم من أساسها ـ فهلا ايها الاخوان لا يستهوينكم الجهلة الاغبياء بجهلهم فتتسرعون بالفتاوي فتتهمون البريء البار وتجازون المحسن سوءًا على احسانه

زين العابدين ولي الله

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الخطاب

مدار البحث

أظهر اليوم محاسن الاسلام في هذا المجمع المبارك الذي كان الغرض منه أن يبين فيه كل منتدب عن رؤساء الأديان مزايا دينه ـ مراعياً في ذلك الأسئلة الخمس المنشورة على صفحات الجرائد . وقبل الخوض في موضوع الخطاب ـ أرى من المناسب ان اخبركم انني أتعهد فيما أنا قائله ان لا أذكر الا ما ذكره القرآن المجيد كلام الله المقدس لأنه من رأيي ان اول واجب على من يتدين بكتاب ويعتقد انه الوحي الرباني ـ أن لا يتوسع فيما نيط به من سلطة الوكالة وواجب النيابة بحيث ينشيء من عندياته كتاباً جديداً

الامانة في التمثيل

وبما انني أخذت على عاتقي ان أظهر اليوم فضائل القرآن المجيد ، وأبين كمالاته ـ فخليق بي أن أتقيد بالقاعدة المذكورة فلا اتعسف في كلمة ما عما يقوله القرآن العظيم وانني لفاعل ـ وانني لا أقول شيئاً الا اعتماداً على بينات القرآن المجيد مستمداً من تصريحاته واشاراته من غير ان أحمل شيئاً منها على معنى لا تكون دلالته ظاهرة واضحة من سياق الكلام وسباقه ، والمأمول من غيري ايضاً ـ أن يلاحظ نفس المبدأ فيما يذكر عن كتابه المقدس كي يتسنى للسامعين الكرام ان يقارنوا بين الكتب المختلفة بعضها ببعض فيحكموا لكل منها حسب قيمته ، ويعلموا مبلغه من الصحة والاصابة ، ومكانته من السمو والفضل

واني حرصاً على محافظتي على المبدأ المذكور ، ورجاء في ان يتمسك كل خطيب بكتابه المقدس ـ تركت الاحاديث الصحيحة جانباً وان كانت جميعها مأخوذة من القرآن العظيم الذي هو الكتاب الكامل الذي ختمت به

الكتب جمعاء . فاليوم – يوم يتجلى فيه للقرآن شأن تجليل ويتحقق للملأ ان كلمته هي العليا ، وانا لندعو الله أن يكون لنا ناصراً ومعيناً – آمين

تنبيه

ضرورة الكلمة التمهيدية

لا يغيبن عن السامعين الكرام انهم سيجدون في اوائل هذا الخطاب تمهيداً ربما ظنوا ان لا علاقة له بالموضوع ولكنه في الحقيقة أمر ضروري جداً حتى لا يتعذر على أحد ادراك الغرض المقصود

الحالات الثلاث للنفس البشرية

النفس الامارة ـ منشأ ينبوعها ـ الحالات الطبيعية

لا يخفى أن السؤال الاول يرجع الى حالات الانسان الطبيعية والاخلاقية والروحانية

أما الجواب ـ فاعلموا ان القرآن الحكيم قسم هذه الحالات الى ثلاث بالنظر الى مبادئها النفسية أو بعبارة اخرى ـ انه جعل لها ثلاث ينابيع تنبع منها تلك الحالات كل على حدة من ينبوعها الخاص. وسمى المبدأ الاول اي مبدأ الحالات الطبيعية ـ النفس الامارة في قوله: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ» اي ان النفس الامارة سجيتها انها تميل بالانسان الى السيئات التي تغاير الاخلاق وتنافي الكمال، وتدفعه الى السير في مسالك السوء ومذاهب المنكر، فخروج الانسان عن حد الاعتدال، وجموحه الى السيئات ـ حالة تتقدم بطبيعتها ـ الحال الاخلاقية وتستولي عليها

ان هذه الحالة لا تزال تسمى طبيعية ما دام الانسان لا يهتدي بنور عقله ومعرفتـه ـ بل يتبع كالعجماوات شهواته الطبيعية في الاكل والشرب والنوم واليقظة والغيظ والغضب وما أشبه ذلك من الميول والاهواء

أما اذا تصرف الانسان في حالاته الطبيعية بمشورة العقل والعرفان ، ولاحظ فيها حد الاعتدال المطلوب ـ فلا تبقى هـذه الحالات طباعاً ـ بل تصير اخلاقاً كما سنبينه بالايجاز فيما بعد

وأما منشأ الحالات الاخلاقية فاسمه في القرآن المجيد ـ النفس اللوامة كما يقول : « وَلاَ أُقْسِمُ بِالنفْسِ اللَّوَّامةِ » اي لا اقسم بالنفس التي خاصتها انها تلوم نفسها على كل مأثمة تغشاها او فرطة تبْدر منها ، وهذه النفس اللوامة تكون للحالات الانسانية مصدراً ثانٍ تصدر منه الحالات الاخلاقية كلها

النفس اللوامة منشأ الاخلاق

اذا وصل الانسان الى هذه الدرجة ـ فقد نجا من

مشابهة الانعام ، ولم يقسم الله تعالى بالنفس اللوامة ههنا الا تنويهاً بشأنها فكأنما النفس استحقت عند الله هذا الاكرام من أجل أنها انسلخت عن طبيعتها الاولى الامّارة بالسوء ـ وارتقت الى درجة ـ النفس اللوامة

وانما سماها باللوامة لكونها تلوم الانسان على الشر ولا ترضى له في حال من الاحوال أن يستهتر في ميوله وأهوائه ، ويسترسل في الشهوات ومقتضيات الطبيعة استرسال الانعام الهمل ويعيش عيشة البهائم والدواب المطلقة القيود والارسان ـ بل تطالبه بان يسترشد عقله وفكره في تلبية دواعي الفطرة والقيام بمقتضى الشهوات الطبيعية ولا يتجاوز في جميع لوازم الحياة حد الاعتدال ولا يصدر منه الا خير الحالات وصالح الاخلاق . وبما إن النفس تعذل الانسان على سوء فعله مرة بعد أخرى فقد وصفها الله تعالى باللوامة أي كثيرة التعذال

والنفس اللوامة وان تكن تمقت الشهوات الدنيئة

والاميال السافلة ولا تنفك تزجر عنها نفسها ـ فانها مع ذلك لا تكون قادرة كل القدرة على عمل الصالحات ـ بل تغالبها ثورة الطبيعة وتصارعها ذلواؤها حيناً بعد حين فتعثر وتسقط كأنها الطفل الضعيف ـ تحاول ان لا تسقط الا أنها تسقط بسبب ضعفها ، وتتندم على عجزها هذا .

وخلاصة القول ـ ان هذه الحالة النفسية الاخلاقية التي بها تجمع النفس في ذاتها مكارم الاخلاق ، وتكره الطغيان والفسوق ـ لا تغلب « الامارة » بعد حق الغلب

هذا ـ وأن هنالك المنبع الثالث ، واسمه في مصطلح القرآن الحكيم « النفس المطمئنة » وهو ما ينبغي أن نعتبره مبدأ الحالات الروحانية كلها ، وقد ورد ذكره في قوله تعالى : « يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي » (٨٩ : ٢٨ ـ ٣٠)

النفس المطمئنة منشأ الحالات الروحانية

ان هذا المنبع هو آخر درجة من درجات ارتقاء

الانسان الروحاني تخلع فيها النفس الضعف والوهن كله وتمتلئ من الملكات الروحانية ، وتتصل بربها اتصالاً لا تكاد تحيا بدونه طرفة عين . وكما أن السيل المنحدر من فوق التلال الى أسفلها ، يتدفق في جريه تدفقاً شديداً بسبب غزارة أمواهه ومن أجل أنه لا يعترض سبيله من عائق يمنع مجراه وينقص من سرعته ـ فكذلك النفس المطمئنة تنطلق تجري الى الله مندفعة اندفاعاً شديداً لا يحول دونه حائل ـ الى مثل هذا الاندفاع تشير الآية « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية »

لقد تبدل النفس تبدلاً عظيماً في هذه الحياة ولا بعد الموت وتجد جنتها في هذا العالم لا في غيره ، وفي هذا الآن تغتذي النفس من ربوبية الله وتستقي من موردها مورد الحياة السرمدية ، وتكون محبته غذاءها النمير تحيا به حياة لا تذوق معها الموت أبداً كما هو منطوق الآية المارّة آنفاً ، وكما جاء ذكره في قوله تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيهَا »

أي أن من طهّر نفسه من الشوائب الارضية ـ فقد نجا من الهلاك ، وأما من أخلد الى الارض وانهمك في شهواته فقد يئس من الحياة

فهذه الاحوال الثلاث هي التي يجوز أن نسميها ـ بعبارة أخرى ـ الحالات الطبيعية والاخلاقية والروحانية . وبما ان المقتضيات الطبيعية تعود عند الافراط اكبر خطراً وكثيراً ما تفسد الاخلاق وتتلف الروحانية ـ فقد عبر عنها في كتاب الله المقدس باسم النفس الامّارة بالسوء

نسبة الحالات النفسية الثلاث فيما بينها

وهداية القرآن المجيد

نسبة الاوضاع الظاهرية الى الحالات الروحانية

اذا سأل سائل ـ ما هي هداية القرآن المجيد بالنظر الى اصلاح الحالات الطبيعية ؟ وماذا يرشد الانسان في شأنه ؟ وما هي الحدود التي يقيمها دون شهواته النفسانية ؟ والى أي حد يسمح لها بالعمل على مقتضاها ؟ فالجواب عن ذلك وفق هداية الفرقان ـ ان للحالات الطبيعية مع الحالات الاخلاقية والروحانية روابط شديدة جداً حتى أنه ليؤثر في أخلاق الانسان وكيفياته الروحانية آداب أكله وشربه وهيئات جسمه من القيام والقعود ـ فلو مارس الانسان نفسه في الحالات الطبيعية حسب هدايات الشريعة الربانية ـ لاستحالت كل هذه الحالات أخلاقاً كما تستحيل الاشياء في معدن الملح ملحاً ، ولأثرت في روحانيته تأثيراً عميقاً ، فمن أجل ذلك ـ ألزم القرآن أشد

الالزام تعديل الاوضاع الظاهرية ورعاية الطهارات الجسمانية في سائر العبادات والصلوات وفي جميع الفرائض التي كان القصد منها اخضاع النفس وتزكية الباطن

ومتى أمعنا النظر في حكمة أوامر الشريعة المتعلقة بظاهر الحركات والهيئات ـ ظهر لنا أنها هي الفلسفة الصحيحة الصائبة غاية الصحة والصواب ـ كما ينكشف جلياً من درس وظائف الاعضاء الخارجية وما يحصل بواسطتها من الآثار في الفطرة الباطنية . ان بين هذه وتلك ـ لنسبة عميقة وعلاقة متينة وان حركاتنا الطبيعية وان كانت جسمانية ـ فلها في حالاتنا الروحانية أثر محسوس ، فالعين مثلاً اذا أخذت في البكاء ـ ولو تصنعاً ـ لا بد وأن ينبعث من الدموع سعير يسري الى القلب أثره فاذا بالقلب يتأثر العين فيكتئب . وكذلك اذا ضحكنا ـ وان يكن تكلفاً بادئ ذي بدء ـ قد يكسب الفؤاد فرحاً وانبساطاً . كذلك نرى ان السجود الجسماني أيضاً يولد في نفس الساجد حالة التضرع والخشوع كما نشاهد بالعكس

منه أن تطاول العنق والتقاعس والتغطرف ـ كل ذلك مما يعقبنا كبراً وغطرسة . يتبين من هذه الامثلة بكمال الوضوح أن للاوضاع الجسمانية في الحالات الروحانية أثراً بلا ريب

تأثير الاغذية في القوى النفسانية

كذلك تثبت لنا التجارب ان الاغذية المتنوعة أيضاً تؤثر في الوظائف الدماغية والقوى النفسانية

تأملوا قليلاً أولئك الذين لا يأكلون اللحوم ـ كيف تضمحل فيهم قوة الشجاعة شيئاً فشيئاً حتى انهم يصبحون جبناء للغاية ويفقدون من جراء ذلك قوة محمودة هي احدى مواهب الرحمن الجليلة !! ولنا في ذلك شاهد آخر من السنّة الالهية الجارية في الحيوانات التي تقتات بالاعشاب ـ فانه لا يوجد بينها حتى ولا حيوان واحد له مثل شجاعة الحيوان الذي يتغذى باللحوم ـ وهذا هو المشاهد بعينه في الطيور ، فلا شك حينئذ ان الاغذية تؤثر في الاخلاق تأثيراً عظيما

أجل ـ ان الذين يغرمون الى اللحوم ليل نهار ولا يتناولون من البقول الا قليلاً ـ يتضاءل فيهم خلق الحلم والتواضع كما يتضاءل خلق الشجاعة في الذين يتحامون اللحوم كلية ، والذين يتخذون بينهما طريقاً وسطاً ـ يرثون كلا الخلقين ـ الشجاعة والرحمة ، ولهذه الحكمة نفسها أمرنا الله تعالى بقوله :

« كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا » (٢ـ٢٩) أي كلوا من اللحوم ومن البقول غير أن لا تفرطوا في شيء مما تأكلون لئلا تتضرر الصحة من هذا الافراط ، ويسري الى الاخلاق أثره السيء

التفاعل بين الحالات الروحانية والهيئات الجسمانية

وكما أن الافعال الجسمانية تؤثر في الروح ـ كذلك للروح تأثير ينبث في الجسم أحياناً كثيرة ويبعث فيه آثاراً ظاهرة . فمن أصابه الغم ـ اغرورقت عيناه بالدموع ومن أحسّ بالسرور افترت مباسمه

ان جميع ما لنا من الافعال الطبيعية الضرورية

كالأكل والشرب والنوم واليقظة والحركة والراحة والغسل واللبس وغيره - كل أولئك مما يؤثر في حالاتنا الروحانية ، وبين تكويننا الجسماني وجبلتنا الباطنة رابطة لازب يتأثر بعضه من البعض ، وتذهب قوة الحافظة بغتة بصدمة واحدة في مركز من المراكز الدماغيـة وبأخرى يغيب الانسان عن العقل والشعور بتاتاً ، وكذلك ترون أن الاهواء الوبيئة السامة سرعان ما تتخلل الجسم وتوصل الى القلب أثرها فما هي الا لحظة عين حتى يختل النظام الباطني الذي به قوام الاخلاق كلهـا ، وفي بضع دقائق - يجود الانسان بنفسه مكروباً مخبولاً

نشأة الروح من الجسم

فكم عجيباً هذه الحوادث والاصابات الجسمانية التي تمر بنا وتقع أمام أعيننا كل يوم - وما هي في الحقيقة الا أمثلة صادقة وأدلة بينة تثبت بلا مراء أن بين الروح والجسم واشجةً ليس في وسع الانسان أن يكشف سرها المكنون . واكبر برهان على وجود العلاقـة المذكورة

هو ان الروح تتولد منه وتنشأ فيه كما يظهر ذلك من التدبر في خلقها ونشأتها . انها لا تتنزل الارواح في بطون الحوامل من جو السماء ــ وانما هو نور مكنون في النطفة نفسها ينكشف شيئاً فشيئاً مع نشؤها ونموها

ان كلام الله المقدس يخبرنا بان الروح لتبرز في الوجود من نفس القالب الذي يتهيأ في الرحم من النطفة كما يقول سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم حيث يذكر تكوّن الانسان من النطفة فالعلقة . . . . « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ » (٢٣ : ١٤) أي ننشيء الجسم بعد تهيئته في الرحم نشأة اخرى ونبرز له خلقاً آخر يسمى الروح فتبارك الله احسن الخالقين

النشأة الروحانية في قالب الاعمال

ان ما ذكره الله تعالى من انشائه الخلق الآخر في الجسم ــ كما يدل على سرٍّ غامض ــ فانه يبيّن حقيقة الروح ويشير الى ما بينها وبين الجسم من الوصل المستحكمة كذلك يدل على أن هذه الحكمة الالهية نفسها تتعلق

باعمال الانسان واقواله وافعاله الطبيعية كلها اذا هي أصبحت خالصة لله وصدرت في سبيله ـ أي ان الاعمال المخلصة تكمن فيها الروح منذ الابتداء كمثل الروح التي تكمن في النطفة ، فكلما ازداد قالب الاعمال تكوّناً ازدادت تلك الروح ذكاء حتى اذا بلغ القالب غايته واستوى ـ اشرقت الروح فجأة بكمال التجلي وظهرت بمظهرها الروحي ، فهنالك تبتدئ في جسد الاعمال حركة الحياة المحسوسة وسرعان ما يكتمل قالبها وينبثق في داخله نور ساطع يتلألأ كالبرق تلألؤاً واضحاً ـ وهذا هو الزمن الذي يصفه الله تعالى في كتابه الحميد بقوله : « فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (١٥ : ٢٩) أي اذا اتممت قالب الاعمال وعدلت فيه مظاهر التجليات كلها ونفثت فيه روحي ـ وجب عليكم جميعاً أن تخروا له على الارض ساجدين . فالآية انما تشير الى نفس المعنى أي انه عندما يستعد قالب الاعمال استعداده التام تتجلى فيه تلك الروح التي نسبها الله تعالى

الى ذاته ، وذلك لان هذا القالب لا يبلغ تمام الخلق الا اذا طرأ على الحياة الدنيا الفناء الكامل . فاذا تمَّ تكوينه هذا ، وأشرق معه دفعة واحدة النور الرباني الذي لم يك الا ضئيلاً من قبل ـ ووجب على كل احدٍ عند مشاهدته هذا الشأن الالٰهي ان يسجد له وينجذب اليه ، وكذلك الكل يسجد ويقبل عليه عن طيب نفس ـ الا ابليس الذي يحب الظلام

نعود الآن لما كنا بصدده ـ فنقول ان الحق الذي لا ريب فيه قطعاً ـ هو ان الروح نور لطيف ينشأُ من الجسم الذي يتكون في داخل الرحم ، والمراد من نشوء الروح من الجسم ظهورها بعد الكمون . أي ان جرثومتها كانت بادئ بدء مستترة في باطن النطفة ، فاذا تنسمت هذه ـ برزت الروح الى حيز الظهور . لا شك ان للروح بالنطفة علاقة غامضة الكنه بمشيئة الله وارادته وأمره ، وان الروح جوهر النطفة الذي النوراني ولكننا لا نستطيع ان نقول انها جزء النطفة بمعنى ان الجسم جزء الجسم ، كما

انه لا يمكننا ان نقول انها تدخل النطفة من الخارج أو انها تسقط على الارض من السماء فتمتزج بمادة النطفة بل انها لكامنة في النطفة كمون النار في الزند

بطلان المزعوم الرائج بين الهندو

كلا ـ لا يقول الله ان الروح لها وجود مستقل تتنزل من فوق السماء أو تسقط على الارض من جو الفضاء ثم تختلط بالنطفة صدفة وتتسرب معها الى داخل الرحم . انه لزعم باطل لا يصح البتة ، ولئن ظننا مثل هذا الظن لكذبتنا سنن الفطرة وشهدت علينا نواميس الطبيعة. فاننا نرى كل يوم ان ألوفاً مؤلفة من الديدان والجراثيم تتكون في الاطعمة الآسنة المتعفنة وفي الجروح المتقيحة ومئات من القمل في الاسمال القذرة والاطمار البالية ـ كما انه قد يتولد في بطن الانسان ديدان القرع والحيات ـ فهل نقول ان أرواحها تأتي من الخارج ـ أم هل رآها أحد تتساقط من السماء ؟ كلا ـ بل ان الروح تنشأ من الجسم نفسه ولنشوئها هذا دليل قاطع على كونها مخلوقة كسائر المخلوقات

فالمقصود مما قلناه آنفاً هو ان نلفت انظاركم الى مشيئة الله المتجلية في الخلق . ان الخالق القدير الذي بكمال قدرته قدّر في الجسم نشأة الروح الاولى - ليريد كذلك ان يظهر بوساطة الجسم نفسه نشأة الروح الثانية .

ومما هو بيّن واضح - أن حركة الروح منوطة بحركة الجسم واننا حيثما جذبنا الجسم انجذبت معه الروح وتبعته لذلك يليق بكتاب الله الحق أن لا يصرف عن حالات الانسان الطبيعية النظر - بل يتوجه الى تعديلها واصلاحها قبل كل شيء . وقد التفت اليه القرآن الحكيم أشد الالتفات وأرشد الانسان الى الطريق المثلى فيما يجب عليه وينبغي له من مراعاة الآداب والاطوار في الاكل ، والشرب ، والقيام ، والقعود ، والمشي ، والوقوف ، والنطق ، والصمت ، والضحك ، والبكاء ، والغسل ، والنظافة ، وفي حالة المرض والصحة ، والزواج والعذوبة ، وفي جميع أفعاله وحركاته الظاهرة - واعتبر هذه الحالات الطبيعية على اختلافها أعظم مؤثر في حالات الانسان

الروحانية . ولئن فصلت هذه الامور بالاستقصاء ـ فما أظن أن الوقت يسمح لي بتلاوة هذا الموضوع الضافي الاذيال

وجهة القرآن المجيد في الرتبة الاخلاقية والروحانية

كلما تدبرت كلام الله المجيد وتأملت بالامعان في ان الله تعالى كيف أراد أن يعلم الانسان مبادئ الاصلاح في حالاته الطبيعية ثم يستدرجه الى الاعلى فالاعلى حتى يبلغ به منتهى المعراج الروحاني ـ تبيّن لي ان الحكمة في كل ذلك هو انه سبحانه وتعالى أراد أن يعلم الانسان اولاً قواعد المعيشة الضرورية وآداب المعاشرة الابتدائية مثل المأكل والمشرب والقعود والقيام والمحادثة والمخاطبة وغيرها ـ فيخلصه به من الاطوار البهيمية ويميّزه من مشابهة الانعام تميزاً كلياً ويصل به الى المقام الادنى من الحالة الاخلاقية التي تسمى باسم الادب والتهذيب ، وبعد هذا ـ يريد أن يعدّل عاداته الطبيعية التي يجوز أن نسميها الاخلاق الرذيلة تعديلاً تستحيل به أخلاقاً شريفة ، ولا

يخفى ان هاتين الطريقتين شيء واحد لانهما يرجعان الى اصلاح الحالات الطبيعية . وانما فرق الادنى والاعلى جعلهما قسمين ليس الا — وما عرض الله الحكيم على الانسان نظام الاخلاق بهـذا النسق الا ليتيسّر له الارتقاء من الخلق الادنى الى الخلق الاعلى

ثم جعل القرآن العظيم المرحلة الثالثة للارتقاء وهي أن يفنى الانسان في محبة الهه الحقيقي ويمحو لابتغاء مرضاته وأن يصبح كل وجوده لله العلي — وهي تلك الرتبة التي من أجل ان يذكرها المسلمون دائماً ابداً — سمى الله دينهم باسم الاسلام — لان الاسلام معناه أن يكون الانسان كله لله وأن لا يبقى لذاته من شيء له كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢ : ١٠٦) أي ليست النجاة بالاقاويل — بل ان الناجي هو ذلك الانسان الذي قد تلّ نفسه في سبيل الله منحيةً له ، وليس بالنيات والاماني فقط — بل بالاعمال الصالحات

اثبت صدقه . فمن كان هذا شأنه فقد حق له عند الله اجره ، لا يخافون شيئاً ولا هم يحزنون . ويقول بمعناه في مقام آخر : « قُلْ إِنَّ صَلَوَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينْ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينْ » (٢ : ١٦٣) ويقول : « وَإِنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهْ » (٢ : ١٥٣) ويقول : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣ : ٢٩)

الفارق فيما بين الحالات الثلاث

الواشجة فيما بين عناصر الارتقاء

فلنأت الآن على بيان الدرجات الثلاث المذكورة كلاًّ على حدتها ، لكن يجب ان اخبركم قبل ذلك انّ الحالات الطبيعية التي مبدأها النفس الامّارة ـ ليست شيئاً مستقلا

عن الحالات الاخلاقية حسبما يتبين من مدلولات كلام الله المجيد ، فانه ـ اي كلام الله المجيد ـ جعل جميع الغرائز والشهوات والاميال والاهواء ضمن دائرة الاطوار الطبيعية ، وهذه الاطوار الطبيعية تنصبغ بصبغة الاخلاق الفاضلة بالتعديل والتنظيم وباستعمالها في محلها بقوة الارادة والحزم ، وكذلك الحالات الاخلاقية ليست مغايرة للحالات الروحانية ـ بل ان نفس الحالات الاخلاقية تصطبغ الصبغة الروحانية بالتزكية النفسية التامة وبحب الله الخالص المحض والفناء الكلي في ذاته وبالوصال الرباني الكامل وبمنتهى السكينة والطمأنينة التي ينالها الانسان اخيراً بذكر الله تعالى وتضحية النفس في سبيله، اعلموا ان الحالات الطبيعية لا تؤهل الانسان للمدح ما لم تصير تلك الحالات اخلاقاً ، فانها لتوجد في الحيوانات ، الاخرى بل وفي الجمادات ايضاً ولا يخلو منها من شيء

العمدة في الاخلاق الفاضلة

وكذلك الاخلاق الحسنة ـ فانها لا تمنح الانسان

الحياة الروحانية ـ بل قد يمكن ان يتخلق بها احدهم وهو زنديق يكفر بالله . ان استكانة القلب ورقة الفؤاد والمسالمة والمداراة ومجانبة الشر والاعراض عن مقاومة الشرير كل هذه حالات طبيعية مما يمكن ان يتحصلها من يجهل ينبوع النجاة الحقيقي محروماً منها كل الحرمان . فكم بين الانعام من حيوان مسكين يظهر كل هوادة بالاستئناس والاستئلاف ذلول لا يبدي حراكا مهما ضرب سوطاً على سوط ، ومع هذا لا يصح ان نسمّيه انساناً فضلاً عن ان نعده بفضل طبائعه هـذه من الطبقة العليا من البشر وعلى ذلك ـ يمكن ان يتطبع بهذه الاخلاق شر الزنادقة بل وقد يمكن ان يتخلق بها من يرتكب بعض الفواحش ايضاً ، ومن الممكن ان يبلغ الانسان من الرأفة بحيث لا يجيز قتل الديدان التي تختلج في جرحه وتؤلمه ، وان يشفق على ذوات الحياة بحيث انه لا يرضى ان يؤذي حتى القمل التي تتمشى في الرأس والديدان التي تتولد في المصارين والدماغ ، وانني لاقبل ان تفضي بالانسان الرحمة حتى انه

ليعاف العسل ابقاءً على النحل ـ فان العسل لا يشتار الا بعد ازعاج النحل من مأمنها واتلاف كثير من النفوس واسلم ايضاً ان يأنف البعض من المسك من جرّاء انه دم الظبي المسكين وانه لا يحصّل الا بعد قتله وبعد التفريق بينه وبين اطفاله ، وكذلك لا انكر ان يكف الناس عن استعمال اللآلئ ويمسك عن لبس الحرير رحمة وحنانا بالحيوان لانهما لا يمكن الحصول عليهما الا باهلاك الدويبات ـ بل واني اصدق بان يتوفى المرء الاعلاق وهو في شدة مصابه يتحمل مضض الالم في نفسه ولا يريد للعلق المسكين الموت ، وفي نهاية الامر اقول انني لا اكذّب ـ وان كذّب غيري ـ ان فلاناً قد بلغ في الرحمة منتهى الكمال بان ترك شرب الماء واعطب نفسه من اجل سلامة الجراثيم المائية . نعم ـ أقبل كل هذا ولكن لن أقبل بان جميع هـذه الحالات الطبيعية هي في شيء من الاخلاق او انها لوحدها تطهر الادران الباطنة التي تحول بين المرء وبين الله ـ كلا ـ لا اصدق ان التمسكن والتحالم

والتوادع والطباع التي قد يفوق فيها الحيوان البشر بشيء قليل تضمن للانسان الارتقاء الاسمى وتوصله الى المقام الاعلى من معراج الانسانية ـ كلا ـ بل انه على رأي بعضهم ـ لحربٌ عوان ضد سنن الفطرة الربانية وخصام مبين مع مشيئة الله وكفران ظاهر بالنعمة العظمى التي أعطانا الله اياها ـ ألا لا تنال الغاية الروحانية الا باستعمال كل خلق في موضعه وبالسلوك في سبل الله تعالى بالصدق والاستقامة وبان يكون السالك كله لله ، ومن كان لله فعلامته أنه لا يستطيع العيش بدونه . ان العارف ـ سمكة مذبوحة بيد الله ، وان ماءها محبته تعالى

طرق الاصلاح

اعود الآن الى كلامي السابق واقول كما مرَّ ذكره آنفاً ان للحالات البشرية ثلاث مظاهر نفسية وهي النفس الامّارة والنفس اللوامة والنفس المطمئنة ، وكذلك للاصلاح طرق ثلاث توازي هاتيك المظاهر بالتمام فالطريق الاول ـ هي القيام بشأن المتوحشين الاغمار

والنهوض بهم من حالة التوحش الى الدرجة الدنيّا من الاخلاق وذلك بتعليمهم آداب الاكل والشرب والزواج وما اشبهه من امور التمدن البسيط فلا يعشوا عرايا ولا يأكلوا الجيف كالكلاب ولا يأتوا بشيء من افعال الهمجية ـ وان هـذه لأحط درجة من درجات اصلاح الحالات النفسية ، وان هذا الطريق لما ينبغي ان يتّبع فيما لو أريد مثلاً تأنيس همجي يرى تهذيبه فيؤخذ في تعليمه اولاً بالادنى والاسهل من الاخلاق والآداب والانسانية ليس الا

والطريق الثاني ـ هو انه متى تمكن احد من مبادىء الانسانية الاولى ، واستعد لقبول ما هو فوقها ـ وجب حينئذ ان يعلّم الاخلاق الفاضلة ، وكيف يستعمل قواه الـكامنة في مواضعها

والطريق الثالث ـ هو نفخ روح الحب والذوق في قلوب اولئك الزاهدين المتقشفين الذين اتصفوا بمكارم الاخلاق ولكنهم لا يزالون محرومين من لذة الوصال

الرباني فيجب والحالة هذه ان يسقوا رحيق المحبة ويذاقوا لذة الوصال

هذه هي المدارج الثلاث من الاصلاح ـ تلك التي بيّنها القرآن المجيد ، وكانت بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في زمن كان العلم فيه قد فسد وخرب من كل الوجوه كما يصفه الله تعالى بقوله : « ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبحرِ » (٣٠ : ٤٠) وفساد البر والبحر انما يشير الى انه لم يشذ من الفساد طبقة ما من طبقات البشر ـ لا من اهل الكتاب ولا غيرهم من الامم التي كانت محرومة من ماء الوحي الرباني ، لذلك كانت غاية القرآن المجيد في الحقيقة احياء الموتى كما يقول سبحانه : « ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا » (٥٢ : ١٦)

لا ريب ان العرب كانوا يومئــذ في احط درك من دركات الهمجية وكان لم يبق لديهم من نظام بشري يضبطهم عند حد معلوم ، وكانت المعاصي عنــدهم مفاخر يتباهون بها علناً فيما بينهم ، وكان الواحد منهم يقتني عدداً

عديداً من الازواج ، وكان أكل السحت لديهم الحلو الحلال والاكل السائغ ، وكانوا يستبيحون المحارم كلها حتى انهم استحلوا ما نكح آباؤهم من النساء ـ فلأجل هذا جاء تحريمهن في القرآن في الآية « حُرِّمَت عَلَيكُم أُمَّهَاتُكُم » وكذلك كانوا يأكلون الجيف وكان منهم اكلة لحم البشر أيضاً ، وما من مأثمة في العالم الا وكانوا يأتونها بلا أدنى مبالاة . كان اكثرهم يكفرون بالله وينكرون الدينونة وكانوا يئدون البنات بايديهم ويقتلون الايتام ليأكلوا اموالهم اكلاً لمّاً ـ فهم في الظاهر انس الا انهم كانوا مسلوبي العقول لا حياء عندهم ولا حشمة ولا غيرة ـ ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلاً . كانوا يشربون الخمر كالماء وكان ازناهم اسبقهم للرئاسة وكانوا من الجهالة بحيث انهم اشتهروا بين الامم المتجاورة جمعاء باسم الاميين

القرآن هو الهدى الكامل بالنظر الى اصلاح الحالات الثلاث

في مثل ذلك الزمان ولا صلاح يرتجى لمثل هذه الاقوام ـ ظهر في مكة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلا

شك ان زمانه كان يقتضي بالحق الاصلاحات الثلاث التي ذكرناها آنفاً ، وقد اشتملها القرآن الحكيم باجمعها وادعى انه اكمل واتم هداية بالنسبة الى جميع هدايات العالم وذلك لان الصحف الاولى لم تصادف جميع الحالات المستوجبة للاصلاح الكامل وقد صادفها القرآن المجيد وكان مقصده ان يجعل البشر الوحش انساناً ، ومن الانسان انساناً اخلاقياً ، ومن الانسان الاخلاقي انساناً ربانيًا ـ لذلك أحاط القرآن المجيد بهذه الامور الثلاث بالاستيعاب

القرآن ومثله الاعلى

وقبل ان نفصل الاصلاحات الثلاث ـ نرى من الضروري ايضاً ان نذكر ههنا انه لا يوجد في القرآن الحكيم شيء من التعليم يكره الانسان على قبوله . ان الاصلاحات الثلاث هي مقصود القرآن كله ، وهي لباب جميع تعاليمه واوامره ، واما الاحكام الباقية فهي للاصلاحات المقصودة كالوسائل ليس الا . وكما ان الطبيب يتذرع في معالجة المرض واسترداد الصحة تارة الى المبضع والتعضية

وطوراً الى التضميد والتدهين ـ كذلك فعل القرآن الحكيم بان استعمل تلك اللوازم في محلها رحمة بالبشر. وجميع ما في القرآن المجيد من المعارف والوصايا والوسائل ـ انما ترمي الى غاية واحدة ألا وهي ان تنتشل الانسان من حالته الطبيعية وتصل به الى الحالات الاخلاقية ، ومن ثم توردە موارد بحر الروحانية الذي لا نهاية له

الفارق فيما بين الحالات الاخلاقية والنفسانية

قلنا فيما سبق آنفاً ـ ان الحالات الاخلاقية لا تختلف عن الحالات النفسية بل هي عين الحالات النفسية التي تصطبغ بالصبغة الاخلاقية بالتعديل وباستعمالها في موقعها تبعاً لارشاد العقل وايعاضه ـ هذا ـ والا فتلك الحالات مهما شاكلت الاخلاق في ظواهرها ـ لا تكون بدون مشورة العقل والعرفان شيئاً سوى مجرى الطبيعة الارادي كلا ـ لا ندعو الكلب خليقاً ولا الماعز اديباً من أجل انهما يألفان صاحبهما ويتذللان له ، كما اننا لا نسمي الذئب او الاسد ذميم الاخلاق لشراسة طبعه ـ بل ان

الحالة الاخلاقية كما تقدم – تبتدئ بعد الحصافة والحزم وبعد النظر الى الميقات . فالانسان الذي لا يستخدم بصيرته في شؤونه لا يزال كمثل الطفل الرضيع الذي لم تبدو فيه القوة العقلية بعد ، او هو كالمجنون الذي يفقد جوهر العقل والفكر بتاتاً . ولا يخفى ان مثل هـذا الانسان قد تصدر منه احياناً حركات تشابه الاخلاق ، ولكن العاقل لا يعدها من الاخلاق في شيء لانها لا تنبجس من مصدر التمييز والبصيرة – بل تنبعث من تلقاء نفسها كلما سنح لها محرك كما ان الظفل سرعان ما يولد – يقبل على ثدي أمه والفرخ حين يفقس عنه يركض نحو الحب ، وكذا صغار العلق ترث عادات كبارها ، والحييات تبـدي عادات الافاعي ، والاشبال تظهر طبـاع الاسود – وبالاخص . انظروا الى الطفل البشري كيف انه ينم عن الطبائع البشرية حين ولادته . فمتى بلغ سنة او سنتين من عمره انكشفت تلك الطبائع اكثر انكشاف فلا يبكي مثلاً كبكائه الاول – بل يرفعه قليلاً ويشهقه شهيقاً ويصير ضحكه قهقهة

وتلوح في بصره آثار التعمّد والتأمل ، وكذلك يبدو منه في هذا العمر ميل آخر وهو انه يظهر رضاه وسخطه بحركاته ويعطي ويمنع بارادته ، ومع هذا ، فلا تكون هذه الحركات الا طبيعية

ومثل الطفل بعينه ـ يكون الانسان الهمج الهامج الذي لم يعط من العقل الا قليلاً فانه ايضاً لا يزال يتبع جاذبيات طبيعته ويذعن لاهوائها في جميع أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته فما يصدر منه من شيء عن تفكير قواه الباطنية وتدبيرها ـ بل كل ما ينشأ في نفسه عن طبع انما ينشأ طوع المحركات الخارجية . نعم ـ قد لا تكون شراً جميع أمياله الطبيعية التي تبرز في الخارج من كونها الداخلي بسائق المحركات ـ بل يمكن ان تكون بعضها شبه الاخلاق غير انها تخلو من التفكر العقلي وتمعّن النظر واذا كان معها من التعقل من شيء ـ فلا اعتبار له البتة بسبب غلبة الجذبات الطبيعية لان الاعتبار انما يكون لجانب الكثرة

الطور الثاني من اطوار الحياة البشرية

والغرض ـ انه لا يجوز ان تنسب الاخلاق الحقيقية الى من كان مغلوب الشهوات الطبيعية كمثل البهائم والمجانين والاطفال ومن يعيش عيشة الوحش في غالب الحالات ان زمن الاخلاق الصالحة او غير الصالحة ليبتدىء في الحقيقة منذ ينضج عقل الانسان ويقدر ان يميّز به بين الخير والشر او بين شرّين او خيرين فيجد في نفسه حسرة متى ما حاد عن الطريق الصالح ويندم ويأسف على ما اجترأه من سوء ـ هذا هو الدور الثاني من ادوار الحيوان البشرية ـ التي عبّر عنه بالنفس اللوامة في القرآن المجيد كلام الله المقدس

ولكن لا يغيبن عن البال انه لا يكفي المتوحش الوعظ السطحي البسيط وحده في ايصاله درجة النفس اللوامة ـ بل لا بد له مع ذلك من معرفة الله بقدر ما يفهم به انه لم يخلق عبثاً ، وان غاية وجوده فوق ملاهي الحياة لا بد له من معرفة الله من أجل ان تنشأ فيه الاخلاق

الخالصة الصادقة بفضلها . لذلك قد نبّه القرآن الحكيم فيما وعظ به الانسان الى معرفة الاله الحق وأكد له ان لكل عمل او خلق نتيجة تورث صاحبه في الحياة الدنيا نعيماً او عذاباً روحانياً ثم تنكشف تلك النتيجة في الحياة الآخرة انكشافاً ظاهراً . والحاصل انه في حالة النفس اللوامة يحصل الانسان على شيء من العقل والعرفان والوجدان الصحيح فيلوم نفسه على عمل السوء ولا يفتأ يتوق الى العمل الصالح ، وهذه الحالة هي تلك الدرجة التي يكتسب فيها الانسان الاخلاق الفاضلة

تعريف الاخلاق

يجدر بي ان اعرف ههنا ـ كلمة الخُلق بالاختصار فاعلموا ان الخَلْق (بفتح الخاء) اسم للتكوين الظاهري وان الخُلق (بضم الخاء) اسم للتكوين الباطني ، وبما ان الخلقة الباطنة انما تتكامل بالاخلاق وليس بالاميال الطبيعية وحدها ـ فقد اطلق لفظ الخُلق على الاخلاق دون الاميال الطبيعية ، ومن المناسب ايضاً ان اخبركم انه

من الخطأ الفاحش ما يزعمه الناس عامة ان الخُلق انما هو عبارة عن الحلم واللطف والتواضع ـ كلا ـ بل المراد بالخُلق جميع كيفيات الكمال البشري التي اودعت في باطن الانسان بمحاذاة اعضائه الظاهرية ، مثلاً ـ يبكي الانسان بالعين وتقابل هـذا البكاء حالة في النفس هي رقة الفؤاد ـ فاذا استعملها الانسان في مكانها بواسـطة الفعل الموهوب له كانت هذه الحالة خُلقاً ، وكذا يقاوم الانسان العدو بيديه وتوازي هذه الحركة الظاهرية قوة في النفس ـ تلك هي الشجاعة ـ فان استخدمها الانسان بمراعاة الحال والمحل كانت هي ايضاً خُلقاً ، وكذا يريد الانسان أحيانا انقاذ المظلوم من الظالم او اعطاء العاجز المعدم شيئاً على يديه او يريد ان يخدم بني نوعه بطريق آخر ـ فهذه الحركة تماثلها حالة في النفس ـ هي الرحمة ، وآونة يهب فيعاقب الظالم بيديه ، وفي النفس كيفية في نظير هـذه الحركة الجسدية ندعوها الانتقام ، وتارة يستنكف من ان يقابله بالمثل فيصفح عنه ـ وباذاء هذه الحركة كيفية نفسية ـ نسميها

العفو ، وطوراً يستخدم يديه او رجليه او دماغه ابتغاء الخير لبني نوعه ويبذل آخر بضاعته في ترقية حالهم وتوجد في النفس كيفية بموازاة هذه الحركة ـ ندعوها باسم السخاء والجود ـ فاذا استعمل الانسان جميع هذه القوى نظراً الى مواقيتها المناسبة كان اسمها اخلاقاً

الاسوة الكاملة في الاخلاق الفاضلة

يخاطب الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : «وانك لعلى خُلق عظيم» وكان معنى هذه الآية طبقاً للشرح المذكور ـ انك مستوعب لجميع اقسام الاخلاق من عدل واحسان وسخاء وجود ورحمة ورأفة وصدق وثبات وشجاعة وشهامة وما شاكل ذلك ، وقصارى القول ان جميع الكيفيات التي توجد في نفس الانسان مثل الحشمة والحياء والمروءة والامانة والعفة والنزاهة والزهد والغيرة والشفقة والمواساة والاعتدال والاستقامة ، وكالجود والكرم والصبر والقناعة والعفو والاحسان والصدق والوفاء وما أشبهها من الحالات الطبيعية اذا أظهرها الانسان في

مواضعها بإعمال الفكر وايعاء العقل ـ كانت كلها أخلاقاً وهي في الاصل أميال الانسان وشهواته الطبيعية ليس الا وانما تسمى الاخلاق عند ما يتصرف فيها بالارادة وحسب اقتضاء الزمان والمكان . وبما أن من خصائص الانسان انه قابل للرقي ـ فهو لذلك يستطيع ان يبدّل جذباته الطبيعية في الاخلاق باتباع الدين الحق والتعاليم الحسنة ، وبالصحبة الصالحة وهذه الخاصية لا توجد في حيوان آخر

الاصلاح الاول

أي اصلاح الحالات الطبيعية

نبذة من الآداب الابتدائية

نذكر الآن من اصلاحات القرآن المجيد الثلاث الاصلاح الاول الذي يؤول الى تقويم أدنى الحالات الطبيعية وهذا الاصلاح هو تلك الشعبة من شعب الاخلاق التي تعرف باسم الادب ، وأعني به الادب الذي يقيم مراعاته المتوحشين على مركز الاعتدال في حالاتهم الطبيعية مثل الاكل والشرب والزواج وغير ذلك من أمور التمدن الابتدائي وينجيهم من الحياة المتوحشة حياة البهائم والسباع ، وهاكم كما بيّن الله تعالى جميع هذه الآداب في كتابه العزيز :

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ

وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَآئِبُكُمُ ٱللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ . وَحَلاَئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ . لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهاً وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ » (٤ : ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٢)

« أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ . وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ » (٥:٢) (كانت نساء بعض جهلاء العرب اذا لم يولد لهن ولد طلبته بالزناء ـ فالمسافحة هي هذه العادة القبيحة وقد حرّمها الله تعالى عليهم) .... وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ .... وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ .... وَلاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ

حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ إِرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ .... وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا »

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (٤ : ٨٨) إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

(٥ : ٩٢)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ . وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ — وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ » (٥ : ٤)

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ — قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » (٥ : ٤)

« وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا وإذا قِيلَ انْشِزُوا فَانْشِزُوا (٥٨ : ١٢)

« كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا » (٢ : ٢٩) « وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً » (٣٣ : ٢٠) اي اجتنبوا اللغو من القول واذا نطقتم فانطقوا بما يليق بالمقام

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ » (٢٤ : ٤) اي صونوا البدن والبيت والزقاق وكل مجلس ومقام من الاوساخ والاقذار واعتنوا بالنظافة بجميع الوسائل

« وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ » اي لا ترفعه كثيراً ولا تخفضه كثيراً « وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ » (٣١ : ١٨) اي الزم الوسط في سيرك

« تَزَوَّدْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .... وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا (٥ : ٩) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومْ (اي اعطوا السائل والمحروم الذي لم يوهب قوة النطق من البشر والحيوانات الداجنة والطيور التي تطوف بالدور)

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَعُولُوا . وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً » (٤ : ٣)

انما حدد الله تعالى تعدد الزواج بالاربع منعاً لهم من عادتهم القديمة أي الافراط المفرط في أمر الازدواج ، ومراعاة لمقتضيات البشرية وأحوالها المختلفة

وملخص القول ـ ان هـذه الآيات انما يتضمن الاصلاح الاول الذي يحوّل وجهـة حالات الانسان الطبيعية من طرقها المتوحشة الى لوازم البشرية ومبادىء التهذيب ، وليس ثمة للاخلاق العالية من ذكر ـ ان هو الا آداب الانسانية الاولى ، وقد قلنا سابقاً في الضرورة التي اقتضت مثل هـذا التعليم الابتدائي بان الامة العربية التي بعث لاصلاحها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت أحط الامم قاطبة باعتبار الحالة الوحشية ـ حتى انه ما كان قد بقي لديها من الآداب البشرية من شيء قطعاً في شأن من

الشؤون ـ لذلك كان من الضروري تعليمهم هاتيك الآداب الاولية قبل كل شيء

العلة في تحريم لحم الخنزير وغيره

ههنا نكتة حرية بالذكر ـ وهي ان الله حرّم الخنزير وقد ضمن اسمه الاشارة الى تحريمه منذ الاول لان لفظ الخنزير مركب من كلمتين هما « الخنز » يعني فاسد جداً ، و « آر » يعني أرى ـ فيكون معنى الاسم المركب « أراه فاسداً جداً » فالاسم الذي سمّى الله به هذا الحيوان منذ الابتداء انما يدل على خبثه . ومن الاتفاق العجيب ان اسمه في الهندية « سؤر » وهذا أيضاً مركب من كلمتين « سوء » و « ار » أي اراه سوءًا »

ولا ينبغي أن يستغرب هذا القول فاننا قد أثبتنا في كتابنا (منن الرحمن) ان العربية أم الالسنة باجمعها وان كلماتها توجد في جميع اللغات بالعدد الكثير

ان كلمة « سوء» عربية ومترادفها في الهندية « بَدْ » فلهذا يدعى الحيوان المذكور في هذه البلاد بد أيضاً . ولا شك

على ما يظهر — ان الحيوان المذكور كان مشهوراً في البلاد الهندية بالاسم العربي المترادف للخنزير حينما كانت اللغة العربية رائجة في العالم ، ثم هو لم يزل فيها حتى الآن كأثر مذكور ، وان كان قد طرأ على ما يقارب هذا الاسم في لسان « سن سكريت » من النحت والقلب ما غيّر شكله الاصلي ، ولكن الاسم الصحيح الموضوع للحيوان المذكور هو ذلك الاسم لا غير — لانه يشتمل على علة التسمية التي يدل عليها لفظ « الخنزير » وأما معنى الاسم « فاسد جداً » فهو لا يحتاج لزيادة الشرح

من ذا الذي لا يدري ان هذا الحيوان أشد حرصاً على اكل النجاسات من جميع الحيوانات الاخرى ، وانه فوق ذلك — وقح ديوث ؟ والعلة في تحريمه ظاهرة من ان قانون الفطرة يقضي كذلك بان لا يكون تأثير لحم هذا الحيوان النجس الخبيث في الجسم والروح الا خبيثاً ، وقد أثبتنا فيما مضى ان الاغذية تفعل لا محالة في جسم الانسان — فهل من شك في ان تأثير الخبيث خبيث ؟

لقد ارتأى الاطباء اليونانيون من قبل الاسلام ان لحم هذا الحيوان يقلل من الحياء ويزيد في الشهوة والديوثيـة على الخصوص ، وما حرمت الميتة في الشريعة الاسلامية الا لانها أيضاً تصبغ آكلها صبغتها ؟ وتو ضر روحه بوضرها كما انها تضر بالصحة الجسمانية ، وتدخل في حكم الميتة جميع الحيوانات التي يبقى دمها بداخلها عند الموت كالمنخنقة أو الموقوذة ـ وهل يمكن ان يستمر الدم على حالته الاصلية اذا بقي في بدن الميت ؟ كلا ـ لا يمكن ذلك البتة

حالات الانسان الاخلاقية

القسم الثاني من اصلاحات القرآن المجيد ـ هو تحوير الحالات الطبيعية في الاخلاق الفاضلة بعد ضبطها بالشروط الملائمة للمقصود ، وهذا القسم واسع جداً بحيث لو أردنا ان نذكره ههنا مفصلاً أي اننا لو سردنا جميع الاخلاق الشريفه التي بيّنها القرآن المجيد ـ اطال هذا الخطاب حتى

لم يعد يكفي الوقت لعشره ـ لذلك نختصر ملمّين بما يأتي بانموذج من تلك الاخلاق

تقسيم الاخلاق

اعلموا ان الاخلاق قسمان ـ قسم يقدر الانسان على ترك الشر ـ أي التقوى ، وقسم يمكنه من ايصال الخير أي البر . والمراد بالقسم الاول جميع الاخلاق التي بها يحاول الانسان ان لا يصيب أحداً في ماله أو عرضه أو نفسه باللسان أو اليد او العين أو بعض او عضو من اعضائه بل لا ينوي به من سوء او هوان ، والمراد بالقسم الثاني من الاخلاق ـ تلك الاعمال الصالحات التي بها يسعى الانسان ان ينفع احداً في ماله او عرضه باللسان او اليد او العلم او أي طريق آخر من طرق الخير ـ فان لم يكن ذلك بالفعل ـ فانه على الاقل ـ يريد ان يرفع شأنه ويظهر جلاله ، او انه اذا ظلمه احد قدر ان يعفو عنه فينفعه بامتناعه عن التعذيب او التغريم او التعنيف الذي كان لا بد من ان يناله بحق ـ او انه اذا ما ادبه ـ امكنه ان

يؤدبه بما يكون في الحقيقة رحمة له من كل الوجوه

خلق الاحصان وشروطه

فاذا فهمتم هذا ـ أقول ان الاخلاق التي قدّرها الله الخالق استئصالاً للشر ـ لها اربعة اسماء في اللسان العربي الذي هو غنيّ بكل ما يحتاج اليه من المفردات للتعبير عن جميع خواطر الانسان واطواره واخلاقه مما دق او جلّ فالخلق الاول يسمى « الاحصان » والمراد به ذلك العفاف الذي يختص بشهوة الانسان فيما بين الذكر والانثى فالمحصن او المحصنة هو الذي باجتنابه الفجور او مقدماته يمنع نفسه عن الفحشاء التي لا تكسبه سوى الذلة واللعنة في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة مع الخسارة العظيمة لاقربائه علاوة على الفضيحة ؛ ولا يخفى أن من يرتكب الزنا مع امرأة رجل ، او انه لم يقترفه بعد ـ بل بدت من كليهما مبادئه ـ فلا شك انه هو المسؤول عن الجريمة لأن الرجل الغيور يضطر أن يطلق امرأته التي فعلت الفاحشة او رضيت بها ، وان يفرق بينها وبين أولادها

ان كان لها ولد ـ فبسبب هذا اللئيم يتكبد صاحب البيت كل هذه الخسارة

ولا يعذبنّ عن البال أن صفة الاحصان او العفاف لا تعد خلقاً الا متى استعصم صاحبها مع قدرته على سوء النظر او الفعل الشنيع ـ أي انه يتعفف مع كونه يمتلك من القوى ما يستطيع به أن يغشى الجريمة المذكورة

أما اذا كان الانسان فاقد القوى الشهوانية لحداثة سنة او عنانته او لانه مخنثٌ او مسن مجلخ ـ فلا يصح حالئذ أن نصفه بالخلق المذكور . لا ريب ان الانسان به حالة من العفة طبيعية ، غير ان مثل هذه الحالات الطبيعية كما قلنا مراراً ـ لا تسمى أخلاقاً الا اذا صدرت او تهيأت لان تصدر في محلها بإيماء العقل ـ لذلك فان الاطفال والعنينون والناصرون الذين يعدمون قوة الرجولية بحيلة ما ـ لا تكونن قطعاً مصداق هذا الخلق ـ مهما عاشوا بادىء الرأي عيشة الزهد والتقوى بل ولا تكون

عصمتهم هـذه في جميع الاحوال المذكورة الا حالة طبيعية لا غير

طرق العفة والاحصان

وبما ان هذا الفعل الخبيث ومبادئه يمكن أن يصدر من المرأة كما يصدر من الرجل ـ لذلك أرشد الله تعالى كلا الجنسين في كتابه الاقدس بقوله : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ » أي ان يمنعوا عيونهم من رؤية المحارم ولا يحدقوا النساء اللواتي ربما كن مثارات للشهوة ومواقع العثرة وأن يتعودوا والحالة هذه ـ غض البصر أي النظر بطرف فاتر ويستروا عورتهم بقدر الامكان . وكذلك يجب أن يصونوا آذانهم منهم فلا يسمعوا لهن الاغاني والالحان ولا يصغوا الى احاديث الغواني وأقاصيص الغرام ـ فان ذلك أسلم طريق لبقاء النظر طاهراً والقلب نزيهاً ، ثم يأمر النساء بمثـل ذلك : « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ

وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا * وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى ٱللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * » (٢٤ ـ ٣) أي انه سبحانه تعالى يوجب عليهن مثل ما اوجب على الرجل من أخذ الحيطة اللازمة والتوسل بالاسباب الظاهرية التي اذا راعاها الانسان امكنه ان يتقي العثار ـ والطريق للعصمة هو الرجوع عن المعصية رجعة نادم والتضرع الى الله ليحفظهم من السقطات ويبعدهم عن الزلات

هذا . وينهى في مكان آخر بقوله : « وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً * » (١٢ ـ ٣٤) أي ان الزنا لا يكف الانسان عن الغاية المنشودة فقط ـ بل وقد يكون عليه خطراً كبيراً ، ويقول : « وَلْيَسْتَعْفِفْ ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا * » (٢٤ : ٣٣) وذلك بان يصوموا ويقللوا من الطعام وان يستعملوا قواهم في مشاق

الاعمال ويحملوا النفس على جهد الامور كسراً لشرتها

الرهبانية مناقضة للفطرة

وقد اخترع الناس طرقاً يعتزلون بها النكاح عمداً للأدب مثل التعزب او الخصاء والترهبن وغير ذلك مما لم يفرضه الله تعالى على الانسان قط فهو لذلك غلب على امره وما أطاق أن يماشي هـذه البدعات بالتمام كما يقول الله سبحانه وتعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً إبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ رِضْوانِ ٱللهِ * فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » وقوله : « ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » (٥٢ · ٢٢) يشير الى أن لو كانت هـذه الوسائل مما أمر بها الله تعالى لفرض أن يعمل بها الناس أجمعون ولـكان حائئذٍ خاتمة الحياة الدنيا منذ زمن بعيد بانقطاع نسل آدم . ثم ان الاستعفاف ببتر الأعضاء هو في الحقيقة اعتراض ضمناً على الصانع الحكيم الذي لم يخلقها الا لحكمة بالغة وزد على ذلك ان مدار الثواب كله يتوقف على وجود قوة الشهوة أولاً ، ثم على مقاومة الانسان لنزعاتها الفاسدة مستمراً من خشية الله وعلي

استمتاعه من تلك القوة خير الاستمتاع ليس الا . فمن البديهي انه يحرم الانسان من الثوابين بفقدان العضو المذكور لأن الثواب انما يتحقق بوجود الشهوة الثائرة وقمعها فأين الثواب اذا انعدمت تلك الشهوة وأصبح الانسان كالطفل ـ أو يثاب الطفل على عفافه يا هل تُرى ؟

لم يضمن الله تعالى الآيات المذكورة تعليماً سامياً فقط لاكتساب خلق الاحصان والعفاف بل وصف مع ذلك خمس علاجات أيضاً لصيانة النفس وهي غض البصر أي صرفه عما لا يحل له رؤيته ، وحفظ السمع عن صوت الأجانب ، وعدم السماع لرواياتهن ، ومنع النفس عن جميع موجبات الاثم ، والاصطيام وما شاكله في حالة العزوبة ـ وعلى ذلك نقول بكل تحد « ان الاسلام وحده يمتاز بهذا التعليم الأعلى مع جميع الوسائل اللازمة التي بيّنها القرآن المجيد »

وههنا نكتة جديرة بالذكر ـ وهي ان الحالة الطبيعية هي منبع الشهوات والتي لا ينفك منها الا بعد كامل

انما هي هيجان أميالها الذي لا يلبث أن يحصل عند مصادفتها مواقع التحريك او بالفاظ اخرى ـ ان الاميال تصبح في خطر شديد عند تعرضها لبواعثها فلا يسعها الا ان تهيج ـ لذلك ما أباح لنا الله تعالى بان ننظر المحارم مرحاً ونمتع عيوننا بمحاسنهن ونشاهد رقصهن وتدللهن وأن يكن كل هذا بالنظر الطاهر، وكذلك لم يجز لنا ان نسمع من الكواعب القصف والغناء، ونلهي أنفسنا وأن يكن ذلك بنية صالحة ـ كلا لم يأذن لنا به بل حذرنا من ذلك وأكد بأن لا ننظر الحرم وزينتهن أبداً ـ لا بالنظر المقدس ولا بالنظر الخبيث ـ وكذلك أن لا نسمع أصواتهن المطربة وحكايات حسنهن لا بالنية الصالحة ولا بغيرها ـ بل واجب علينا أن ننفر من كل ذلك كما ننفر من الميتة ـ لكيلا نعثر، فانه لا بد وان تقع يوماً ما على حجر عثرة ونتحطم بسبب هذا النظر السارح المطلق، وبما أن الله سبحانه وتعالى يريد ان تبقى مصونة أبصارنا وقلوبنا وخواطرنا جميعها، أرشدنا باعلى التعاليم ـ ولا ريب أن

الاطلاق كثيراً ما يكون موجباً للعثار - أو ليس من الخطأ الفاحش ان نضع امام الكلب الجائع الارغفة الناعمة ثم ننتظر منه ان لا يمر بباله حتى ولا خاطر الارغفة !!!! ان هـذا لمحال - لذلك فقد أراد الله تعالى ان لا يسنح للقوى النفسانية فرصة تعمل فيها عملها خفية ، ولا يتصدى الانسان لسانح ينبعث به خواطر السوء يوماً ما

المقصود من الحجاب الاسلامي

وما سنّ الحجاب الاسلامي لهذه الحكمة ولهذه الهداية الشرعية فقط . كلا - لم يقصد كتاب الله بالحجاب اعتقال النساء وحراستهن كالاسارى - ذلك ظن الجهلة الذين لا يدرون من السنن الاسلامية شيئاً ولا يفقهون لها معنى كان المقصود بالحجاب الاسلامي كف النساء والرجال جميعاً عن حرية التناظر وتبرج الجاهلية لان في ذلك الخير لكلا الجنسين

معنى غض البصر

ثم ولا ينسين ان غض البصر في اللسان العربي هو

صوته عما لا تحل رؤيته ونظر ما يجوز ان ينظر اليه ـ ومن يود تزكية نفسه لا ينبغي له ان ينطلق كالحيوان يسرح بصره الى حيث يهوى من دون قيد ولا ضابط ـ بل يجب عليه في حياته التمدنية ان يعود نفسه غض البصر فانه عادة مباركة تتحول بها طبيعته هذه خلقاً عظيماً من دون أن ينقص من ضروراته الاجتماعية من شيء ـ وهـذا هو الخلق الذي يسمى الاحصان والعفة

خلق الامانة

غريزة الامانة

القسم الثاني من أقسام التقوى أي « ترك الشر » هو ذلك الخلق الذي يعرف باسم الامانة ـ أي عدم الرضى بايذاء الغير ـ بالتصرف في ماله قصد السوء وابتغاء الفتنة والفساد ولا يخفى ان صفة الامانة حالة من حالات الانسان الطبيعية توجد في جميع البشر على الاطلاق حتى ان الطفل الرضيع مع سذاجته الطبيعية ومع انه لم يأخذ بعد

في العادات القبيحة لحداثة سنه يشمئز من مال الغير بقدر انه قلما يرضع من غير امه بل وان لم يستخدم له مرضع قبل ان يعي صعب الارضاع بعده جداً ويتكبد الطفل في نفسه مشقة عظيمة حتى لقد يشرف على الموت بسببها ، ومع هـذا فانه لا يرضى رضاعة الغير بل ويكرهها أشد الكراهة . فما السر في هذا النفور الشديد يا ترى ؟ أليس انه ينفر طبعاً من ان يفارق والدته ويؤثر ما لسواها ؟

خلق الامانة وآدابها

ولئن أمعنا النظر في غريزة الطفل هـذه وتأملنا شأنها واستقصينا غورها بالبحث والتدبر والفكر ـ يتضح لنا ان نفرته تلك انما هي الجرثومة الاولى لصفة الامانة ولن يكون الانسان صادقاً في هذا الخلق ـ ما لم يجد من نفسه ـ كالطفل ـ تمام النفرة والكراهة من بضاعة الغير ـ على ان الطفل لا يستعمل هذه العادة في محلها ويتحمل بجهالته شيئاً كثيراً من العذاب ـ فما عادته هذه الا حالة طبيعية يظهرها بلا روية ولا اختيار وهي بناء عليه لا تعتبر

من الخلق أبداً وان تكن هي المبدأ الاول للامانة في الفطرة البشرية . وكما انه لا يجوز ان يدعى الطفل أميناً ذا تديّن من أجل فعله الذي لم يقترن بالتعقل البتة كذلك لا يجوز ان يوصف به الانسان الذي لا يتصرف في طبيعته هذه بمقتضى الحال ـ الا ان الاتصاف بالامانة امر خطير جداً ولن يكون الانسان اميناً حتى يستوفي الامانة بجميع شروطها من كل الوجوه ـ واليكم فيما يلي نموذج من الآيات التي أرشدنا الله تعالى الى طرق الامانة وآدابها ـ يقول سبحانه وتعالى :

وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا . وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ — وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ

فَٱشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِٱللهِ حَسِيبًا • وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا • إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا» (٤ : ٤، ٥، ٧، ١٠، ١١) أي ان كان بينكم متمول لا يعقل كاليتيم او القاصر او غيرهما وتخافون انه يضيع ماله فاستلموه منه واكفلوه كما يكفله ديوان الكفالة ولا تفوضوا الى هؤلاء الحمق الخرق المال الذي هو قوام المعيشة ومدار التجارة فيما بينكم واعطوهم منه بقدر الضرورة فيما يحتاجون اليه من طعام وكسوة وقولوا لهم قولاً معروفاً مما ينمي عقلهم وشعورهم ويقوم بتربيتهم على ما يلائم حالهم لئلا يبقوا اغماراً جاهلين . ان كان منهم أبناء تاجر علموهم طرق التجارة وان كانوا ذوي صناعة أخرى دربوهم على ما يناسب تلك الصناعة ولا تدعوهم وشأنهم بل خذوهم من حين لآخر بالامتحان والاختبار فيما علمتموهم واعجموا عودهم دوماً حتى اذا ما أدركوا سن

البلوغ أي إلثامن عشر من عمرهم وآنستم منهم انهم اصبحوا يدبرون أموالهم بالعقل والحزم فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً ان يكبروا ، ومن كان غنياً لا ينبغي له ان ينقد على كفالته حق الخدمة اللهم الاّ اذا كان الكفيل فقيراً فليأخذ منها حسبما كان المعروف عند العرب يومئذٍ وهو أن الكفلاء ان ابتغوا شيئاً من أموال الايتام أخذوا لانفسهم قسطاً مما ربحت به تجارة تلك الاموال وكانوا لا يستهلكون رأس المال البتة واذا دفعتم اليهم أموالهم فافعلوا ذلك بمحضر من الشهود ، ومن حضره الموت وكان له اولاد ضعاف غير بالغين لا يحق له أن يوصي بما يجحف بحقوقهم

فانظروا كم من وجوه الامانة بينها الله تعالى ههنا ، ولا ريب ان الآمانة الحقة انما هي تلك الامانة التي تقوم بمراعاة هاتيك الوجوه والا ـ فالامانة التي لا تراعى فيها الآداب والشروط بتمام الحكمة لا تخلو من ان تستبطن دخائل الخيانة من طرق شتى

طرق الخيانة

ثم يقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢ : ١٨٤) أي لا تهضموا اموال الناس بغير الحق ولا تذهبوا بها والكم في رشوة الحكام توسلاً الى غصب أموال الاغيار — كلا «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» (٤ : ٦١)

وكذلك يأمر أن «أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (٢٦ : ١٨٢) أي بالسرقة والغارة والسلب والنهب والطرّ والاغتيال وما أشبه ذلك من طرق الاختلاس والاسلال، ويقول سبحانه وتعالى:

«وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ» (٤ : ٢) أي انه كما لا يحل أن تغصبوا أموال الناس بغير الحق كذلك لا يحل أن تبيعوهم المغشوش من الاشياء او تعطوهم الردي بدل

الجيد والزائف بدل الخالص . بيّن الله تعالى في الآيات المذكورة طرق الخيانة كلها ـ وقد أجمل في البيان بحيث ما غادر وضعاً من أوضاعها الا وقد استوفاه بأكمله . ما اكتفى سبحانه وتعالى بان قال لا تسرق ـ لئلا يفهم الجاهل ان اللصوصية وحدها حرام عليه وأما ما سواها من أساليب الخيانة فهو منها في حل حلال ، كلا ان تحريم الله تعالى جميع مناحي الخيانة بالكلمة الجامعة انما هو منتهى البلاغة . وجملة القول انه ان لم يتخلق الانسان بالامانة بكل تبصر ومع مراعاة جميع حدودها ـ كان فعله هذا مما لا يحسب من الامانة في شيء ـ ولو تظاهر بالامانة في بعض الشؤون فما هي الا حالة طبيعية خالية من التمييز العقلي والبصيرة

الهدنة والهون

القسم الثالث من أخلاق « التقوى » هو ما يسمى في اللغة العربية « الهدنة والهون » أي اجتناب ايذاء

الغير ايذاءً بدنياً بغير حق ، والنزاهة من الشر ، والاساءة ، ومعاشرة الناس بصلح وسلام ـ فلا ريب ان السلم أعلى الاخلاق وانه أضر وألزم ما يكون للانسانية ـ لا غنيٍ عنه قطعاً

غريزة الايلاف وخلق المدنة

ان الغريزة التي تكون في الطفل مكان هذا الخلق والذي بتعديلها يتكون ذلك الخلق هي الاستئناس او الايلاف الطبيعي ـ ومن الظاهر ان الانسان في حالة الطبيعة لا يستطيع أن يفهم معنى السلم ولا يمكنه ان يدرك مفهوم الحرب اذ يكون خلواً من التعقل ، لذلك فان سجية الاستئناس والوفاق التي توجد فيه حينذاك هي المبدأ الاول لخلق المدون ، وبما ان هذه السجية لا تختار وتتخذ بالتفكر والتدبر والارادة المعينة فهي لذلك غير داخلة في عداد الاخلاق وانما تدخلها متى ما جعل الانسان عديم الشر بارادته وأبدى خلق السلم في محله واحترز دائماً من استعماله في غير موضعه وهاكم ارشاد الله

تعالى في الخلق : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » (٨ : ١) أي اصلحوا فيما بينكم بمحو الضغائن وبالمواساة والمعاشرة الحسنى — ويقول سبحانه وتعالى في مقام آخر : « وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ » (٤ : ١٣٨) ويقول سبحانه وتعالى أيضاً : « وَانْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » (٨ — ٦٣) أي لو كنتم في حرب مع قوم ورأيتم انهم مالوا الى الصلح وجب عندئذ أن تصالحوهم ولا تمانعوهم اياه — ويقول سبحانه وتعالى : « وَعِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً * . . . وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * » (٢٥ : ٧٢) أي انهم لا يقومون يتجادلون على توافه الامور بل إذا سمعوا عبث القول مما عساه يكون تمهيداً للحرب ومقدمة للشقاق زاولوه بلباقة ووقار ثم انصرفوا عنه كراماً مكرمين ولا يرون الخصام والجدال بالمستحسن الا اذا أصابهم ضرر شديد . ولا ريب ان هذا هو الاصل الوحيد في معرفة مواقع السلام أي عدم

المبالاة بالسفاسف والتغاضي عنها

الحد الفاصل بين الهدنة والعفو

ان كلمة اللغو الواردة في الآية ههنا هي في العربية عبارة عن الهذيان او الفعل الذي يأتيه الانسان بغية الفساد او الايذاء وليس به في الحقيقة بأس او ضرر كبير فينبغي والحالة هذه ان يعامل مثله معاملة الكرام ويصفح عنه الصفح الجميل وان هذا لمن شيار التواضع والسلام

وأما الايذاء اذا تجاوز حد اللغو وعاد منه الضرر على الحياة او المال او العرض فلا شأن هنالك لخلق الهدنة وانما هو العفو ان أعرضت عن مثل هذا الجرم وسنذكره فيما بعد ان شاء الله تعالى

طرق السلم وموقعه

ومما يرشدنا الله به الى طرق السلم قوله تعالى : «إِدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (٤٠ : ٣٤) أي من أساء معك سيرته عامله بالحسنى ، فيكن لك صديقاً وان كان عدواً ـ وبالجملة

فان محل التغاضي في سبيل السلام هو الفعل المنكر الذي لا يعود منه ضرر حقيقي وانما هو هذر العدو وهذيانه

الرفق والقول الحسن

غريزة الطلاقة وخلق الرفق

القسم الرابع من اخلاق التقوى هو الرفق والقول الحسن والحالة الطبيعية التي ينشأ منها هـذا الخلق هي الطلاقة أي بشاشة الوجه التي لا يفتأ يبديها الطفل عوضاً عن الرفق والقول الحسن الى ان يقدر على النطق وان وجود هـذه الغريزة في الطفل لهو دليل على كونها هي الاصل الاول الذي يتفرع منه الخلق المذكور. ان الطلاقة ملكة طبيعية وأما الرفق فهو خلق يتولد من استعمال هذه الملكة في موضعها، وها كم ما أرشدنا الله تعالى اليـه في شأنه: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَناً» (١١ : ٧٧) أي قولوا لهم ما هو في نفس الامر خير — ويقول: «لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى

أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ . اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ — وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً .... وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » (٥٩ : ١١ ، ١٢)

« وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً » (١٧ : ٣٨)

أقسام البر

العفو والحدوده

لقد انتهينا من ذكر أقسام التقوى وها نحن ذاكرون الآن أقسام البر — أي ايصال الخير — فالخلق الاول من اخلاق البر هو العفو — وذلك بأن الذي يصفح عن المسيء اليه انما يصله بخير اذ لا يؤاخذه بما يستحق على اساءته من الايذاء كالجلد او السجن او المغرم او ان يضربه بيده على الاقل ، لذلك كان العفو عنه بمثابة ايصال الخير بشرط أن يكون بمحله . وناهيك بما يرشدنا اليه القرآن المجيد في

هذا الخلق «وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ....» (٣ : ١٢٨) وقوله : «جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَى وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ» (٦٢ : ٣٨) أي انه يصف أهل البر والصلاح بانهم يمسكون عن غضبهم ويغفرون للناس عند اقتضاء الحال ، واذا عاقبوهم فلا يعاقبون الا بمثل ما اعتدى عليهم وهذه هي القاعدة الكلية في العقوبات بأن السيئة جزاؤها سيئة مثلها . وأما العفو اذا كان في موضعه قصد الاصلاح او منعاً للفتنة والفساد فهو اذاً من الحسنات التي يثاب عليها الانسان بالحسنى

الاصل الحكيم في العقوبات والعفو

فيرى من هذه الآية ان القرآن المجيد لا يقول بوجوب ترك مقاومة الشر وعدم معاقبة الظلمة والاشرار على كل حال ـ كلا ـ بل يرشدنا في ذلك بأن نتبين اولا مواضع العفو من مواقع العقوبة ثم نختار منها ما هو نافع في الحقيقة للمجرم وعامة الخلائق ـ قد لا ينفع المجرم العفو بل يزيده عتواً على عتو ـ لذلك يرشدنا الله تعالى بأن

لا نعتاد العفو على العمياء بل نتبصر جيداً أنى يكون الخير الحقيقي ـ أفي العفو أم في الانتقام ؟ ثم نأتي بعد ذلك بما يوافق الحال والمقام . اننا اذا استقرأنا أخلاق البشر فرداً فرداً ظهر لنا جلياً انه كما يكون بعضهم حقوداً طاوياً على الحقد بكل حرص لا ينسى حتى احقاد آبائه ـ كذلك يكون بينهم من يبالغ في العفو والصفح منتهى المبالغة حتى لقد يفضي هذا الافراط أحياناً الى التدييث ويصدر منه من مخجل الحلم والعفو والتغاضي ما ينافي بالتمام الحمية والغيرة والعفة ويصم السيرة الصالحة وصمة سوء وتكون النتيجة من وراء مثل هذا العفو والسماح ان الناس يتبرأون منه ويلعنونه ـ لذلك فان هذه المفاسد هي التي نظر اليها القرآن المجيد وجعل كل خلق مشروطاً بميقاته ولم يرض منه بما لا يصدر عن مقتضاه

الحد الفاصل بين غريز العفو وخلق العفو

لا يبرحن عن الذاكرة أن العفو المجرد لا يجوز تسميته خلقاً لانه قوة طبيعية قد توجد في الطفل أيضاً .

أفلا ترون ان الطفل اذا أصابته من أحد ضربة ينساها بعد قليل ولو كانت بقصد السوء ويقبل على ضاربه هاشاً باشاً ويرضى منه بحلو القول وان كان قد نوى قتله ـ فهل يكون عفوه هـذا من قبيل الخلق في شيء؟ كلا ـ ان هو الا ملـكة فطرية تصدر منه عفواً بقطع النظر عن مقتضيات الاحوال ، لذلك لا تدخل هذه الملـكة في عداد الاخلاق الا اذا استعملناها في محلها . ولـكن قليل من النـاس من يفرق بين الغريزة والخلق !!!

وانا قد كررنا القول مراراً بان الفرق بينهما هو أن الخلق يستلزم دائماً مراعاة الحال والمقـام ، وأما الغريزة فهي تفعل بدونها ـ هذا والا فان من بين البهـائم البقرة وهي وروع والشاة وهي حنون ولـكن بما انها لم تمنح قوة التميز فلا يمكن أن نقول انهـا متصفة بتلك الاخلاق . الا أن حكمة الله البالغة وكتابه الحق الـكامل قد أناطا بكل خلق شرط الموضع الجدير

مدارج البر

الخلق الثاني من أخلاق « البر » العدل ، والثالث الاحسان ، والرابع ايتاء ذي القربى كما يذكره الله تعالى في قوله : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ » (١٤ : ٩٢) أي أنه يأمر أن تقابل الحسنة بالحسنة . وأن نزيد فوق العدل احساناً ان كان في محله ، وان كان المقام يقضي زيادة على الاحسان — بان نفعل الخير خالصاً بعاطفة فطرية كعاطفة ذي القربى فلنفعله اذاً بتلك العاطفة وانه سبحانه وتعالى كذلك ينهى عن الفحشاء اي أن نتجاوز حدود الاعتدال أو أن يصدر منا من الاحسان ما ينكره العقل بان نأتي الاحسان من غير مأتاه أو نأتلي في انزاله منزلة الحقيقي أو أن نقصر عند الضرورة عن العمل بمقتضى « ايتاء ذي القربى » أو نفرط فيه فنغيث الاقرباء من الرحمة فوق الحد

ان الآية الجليلة تتضمن درجات ثلاثاً من البر فالدرجة الاولى جزاء الاحسان باحسان مثله وهذه أدنى درجة من ايصال الخير يستطيع أن يحصل عليها رجل صالح من أدنى طبقة بان لا ينفك يحسن الى محسنيه . أما الدرجة الثانية فهي أصعب منها حصولاً وهي بدء الانسان غيره بالحسنة من تلقاء نفسه ونفعه اياه تفضلاً من دون سابق استحقاق وليس هذا الخلق الا وسطاً لان كثيراً من الناس يحسنون الى الفقراء ولأنه يستتر في الاحسان عيب ـ وهو ان المحسن قد تحدثه نفسه بان قد أحسن فيبتغي عن احسانه كلمة شكر أو دعاء على الاقل واذا خالفه المنعم عليه في شيء لاقبه وقال كافر النعمة ناكر الجميل وأعنته أحياناً بما لا يطيق ومنّ عليه بصنيعه . لذلك يحذّر الله تعالى هؤلاء المحسنين بقوله « لَا تُبْطِلُوا صَلَوَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » أي لا تضيعوا بالامتنان والايذاء صدقاتكم التي يجب أن تكون عن صدق فان كلمة الصدقة مشتقة من الصدق . وان لم يكن في قلب المرء الصدق والاخلاص فلا تكون

صدقته الصدقة وانما هي عمل الرياء . وحاصل القول ان المحسن فيه ضعف اذ يمنّ باحسانه اذا ما أخذته سورة الغضب . فلهذا حذّر الله المحسنين المنّ والاذى

وأما الدرجة الثالثة في البر فهي ما عبر عنه الله تعالى باسم ايتاء ذي القربى ، وهو أن لا يكن بالبال قطعاً خاطر الاحسان أو أمل الشكران بل ليتدفق الخير بجائشة الشفقة الكاملة ـ شفقة أدنى الاقرباء كمثل الام الحنون التي انما تحسن الى ولدها عن جيشان الشفقة والرحمة لا غير . ان هذه هي المنتهى من درجات ايصال الخير التي ما وراءها درجة يرتقى اليها

هذا وقد جعل الله تعالى جميع أقسام البر هذه منوطة بمراعاة الميقات وصرّح في الآية المذكورة كل الصراحة ان هاتيك الحسنات ان لم تنزّل في منازلها يصبحن سيئات ـ فيكون العدل فحشاً أي يتجاوز الحد بحيث انه يستقبح ، ويكون الاحسان شيئاً منكراً يرفضه العقل والوجدان ويكون ايتاء ذي القربى بغياً أي ان ظهور

عاطفة الشفقة في غير محلها يولد صورة مكروهة فان البغي في أصل اللغة المطر اذا اشتد وتجاوز الحد وأتلف الحرث وأيضاً معناه التفريط أو الافراط في تأدية ما يجب من الحقوق . وبالجملة فأيما من الاقسام الثلاثة يصدر في غير محله يكون سيرة سيئة . فلهذا قد اشترط في كل منها مناسبة المقام وملاحظة الحال . وههنا لا يبعدن عن الذهن أن العدل أو الاحسان أو شفقة ذي القربى مجرداً لا يكون خلقاً في ذاته وانما هي جميعها حالات طبيعية وملكات جبلية توجد في الاطفال كذلك من قبل نشوء العقل وأما الخلق فهو مشروط بالعقل كما انه مشروط فيه ان تستعمل كل قوة في مكانها

وعدا هذا ـ فان في القرآن المجيد هدايات ضرورية عن خلق الاحسان

صورة الاحسان ومواقعه

عرّف الله تعالى كلاً منها بال التعريب اشارة الى مراعاة المواقع المعهودة . مثال ذلك أنه يقول سبحانه وتعالى :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ » (٢ : ٢٦٩) أي انفقوا على سبيل الجود أو الاحسان أو الصدقة مما هو كسبكم الحلال ـ مما لم يختلط به شيء من المال المسروق أو الرشوة أو الخيانة أو الغبن أو الظلم وليكن نأياً عن قلبكم ان ينوي انفاق الخبيث للناس . ويقول سبحانه وتعالى : « لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلأَذى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِيَاءَ ٱلنَّاسْ (٢ : ٢٦٦) .... أَحْسِنُوا إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينْ (٢ : ١٩١) .... ويقول ـ إِنَّ ٱلأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللهِ * يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ * لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً » (٢٦ : ٥، ٦) والمراد بقوله تعالى « يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً » ان أهل البر الحقيقي يسقون من الشراب ما يسكن من

نفوسهم لواعج الحياة الدنيا ويبرر لها أوار الحسرات وتنقي عن قلوبهم الشهوات الخبيثة . ان كلمة الكافور مشتقة من الكفر والكفر معناه في اللغة العربية التغطية والاخفاء ، لذلك كان المقصود من سقي الشراب الكافوري أن ستخمد شهواتهم الدنيئة فيصبحون نقاء البواطن وتسري فيهم برودة العرفان ـ والمراد بقوله تعالى « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » انهم شاربون يوم القيامة من النبع الذي هم يشقونه اليوم بايديهم وههنا سر غامض من أسرار حقيقة الجنة فليفهم من شاء

هذا ومن خصال أهل البر الحقيقي انهم ابتغاء لوجه الله يطعمون المساكين واليتامى والاسارى مما تستطيب نفوسهم من الطعام ويقولون ان ما فعلوه من الخير فعلوه حباً لله ولمرضاته وانهم ما يبتغون به جزاءً ولا شكوراً وهذا اشارة الى انهم على الدرجة الثالثة من ايصال الخير يفعلون المعروف بسائق الشفقة المحضة

ثم من خصائل الابرار الصادقين انهم باموالهم

يسعفون أولي الارحام بحاجاتهم ولا يفترون عن الانفاق منها لليتامى في سبيل تعليمهم وتربيتهم وتعهد حالهم وينقذون الفقراء من الجوع والعطب ويخدمون المسافرين الشحاذين والمتكففين وكذلك يبذلون منها في تحرير العبيد وتفكيك العاني والغريم ـ ويفعلون كل هذا ! بتغاء لمرضاة الله كما يصفهم سبحانه وتعالى بقوله : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ (٢ : ١٢٢) كما ويقول عنهم : إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا . . . . (٢٥ : ٦٢) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . . . . (٢٣ : ٢١) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . . . . » (٥١ : ١٩) أي المحروم من قوة النطق والسؤال ويدخل في عداده الكلاب والهررة والبهائم والعصافير وغيرها من العجماوات ـ ويقول عنهم : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ

وَٱلضَّرَّاءِ .... (٣ : ١٤٨) وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَة .... » (٣٣ : ٤٤) أي انهم لا يضيقون من البذل ذرعاً أبداً لا في الرخاء ولا في الشدائد وحالة البؤس وأيام القحط بل ويظلون يجودون حسب المقدور على كل حال واذا أنفقوا أنفقوا تارة سرًّا خشـية الرياء وطوراً علانية أسوة للناس

ثم يقول سبحانه وتعـالى : « إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللهِ * وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (٩ : ٦٠) لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ * (٢ : ١٠٤) وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَى حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً .... » (١٢ ٢٨) أي قوا أنفسكم مما يسرف من الاموال الطائلة في الاعراس والمواليد واماكن اللهو واللعب وغيرها من العوائد . وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ

وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ ٱلْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ * » (٤ : ٤٠ ، ٤١) ان قوله عز وجل « مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يشمل جميع ما يكون تحت تصرف الانسان من الخدم والخول والانعام وان الاحسان معهم هو اتخاذ أحسن ما يكون من الوسائل في تربيتهم وتحسين حالهم

الشجاعة

غريزة الشجاعة وخلق الشجاعة

ومن حالات البشرية الطبيعية ـ ما يشابه حالة الشجاعة في الرضيع الذي بسائقها يريد أحياناً كثيرة أن يمد يده الى النار . فانه بما يغلب عليه من جوهر الفطرة البشرية لا يهاب شيئاً من المخاوف مطلقاً بادئ ذي بدء وقد يتهور الولد الصغير فيهاجم حتى الاسود فما فوقها من الوحوش

الضواري غير هياب ويبرز وحده لمقاتلة عدد عديد من الناس والناس يظنون انه شجاع عظيم والحق انها ليست الا حالة طبيعية توجد فيه كما توجد في الوحوش الكاسرة بل وتوجد في الكلاب . الا ان الشجاعة الحقيقية الخاصة بمواطنها والتي هي مكرمة من مكارمَ الاخلاق اسم جامع للصفات والحالات التي نوّه الله عنها في وحيه المقدس بقوله :
« وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْس (٢ : ١٢٢) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ (٣٣ : ٢٢) ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ (٣ : ١٦٢) وَلاَ تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيَاءَ ٱلنَّاسِ » (٨ : ٤٩) أي ان الشجعان أولئك الذين اذا فاجأتهم الحرب او حادثة من الحوادث لا يطيرون شعاعاً بل يلقونها بثبات جأش ولا يكون صبرهم من البأس والضراء الا ابتغاء لوجه الله ورجاء لمرضاته ـ لا لاظهار بسالتهم

والذين اذا خوفهم الناس بعضهم من بعض وقالوا لهم ان جميعهم اتفقوا على تعذيبهم ما ازدادوا بتخويفهم الا ايمانًا واقدامًا واحتسبوا بالله وحده . والمراد بهذه الآيات ان شجاعتهم لا تكون كشجاعة الكلاب والوحوش ـ الشجاعة التي انما تندفع بدافع الجائشة الطبيعية ـ التي يكون لميلانها صوب واحد ـ كلا بل ان شجاعتهم ذات ميلين ـ ميلة على شهواتهم النفسانية فيقاومون اياها بشجاعتهم الذاتيـة ويغلبونها وميلة على عدوهم فيناضلونه ـ لا متساوقًا لهوى النفس ـ بل دفاعًا عن الحق ويناضلونه اذا رأوا ان المناضلة مما تقتضيه مرائن المصلحة فهنالك يستبسلون ـ يستبسلون متوكلين على الله وحده ـ لا يعتمدون على أنفسهم قطعًا وتكون بسالتهم تلك بلا تيه ولا رياء ولا عن اتباع هوى النفس . ان يرجون به الا مرضاة الله من كل الوجوه ـ الا فقد أفهمنا الله في الآيات المذكورة ان الشجاعة الحقيقية انما هي الصبر والصدق ـ الصبر والصدق وعدم الانخلاع والجبن عند مثاورة الشهوات النفسانية

ومباغتة الآفات اللائي يهجمن هجمة الاعداء . لذلك فالفرق عظيم ـ عظيم جداً بين شجاعة الحيوان وبين شجاعة الانسان . ان الحيوان لمنقاد لغضبه في جهة واحدة وأما الانسان المتصف بالشجاعة الحقيقية فهو يختار من بين المقاومة وترك المقاومة ما يلائم مقتضى المقام

الصدق

خاصة الصدق ومقامها في الاخلاق

ومن حالات البشرية الطبيعية الصدق الذي هو خاصة من خصائص الفطرة الاولى فان الانسان ان لم يجد له داعياً من دواع الاهواء النفسانية لا يتوخى الكذب أبداً بل يجد منه في نفسه نوعاً من النفور والاشمئزاز لذلك فالذي يظهر كذبه يندم على فعله ويزدريه . غير ان حالة الانسان هذه لا تكون من الخلق في شيء وانما هي أمر طبعي قد يقوم بمراعاته الاطفال والمجانين ايضاً والحق الذي لا مراء فيه انه لن يكون الانسان صادقاً بالمعنى

الحقيقي ما لم يعتزل كلية عن الاغراض النفسانية التي تصده عن الصدق . أرأيتم بماذا يفوق الانسان الاطفال والمجانين ان قال الحق فيما لا يضره كثيراً وقال الزور أو تصامت عن القول الحق اذا ما خاف على عرضه أو ماله أو نفسه !! أفلا يصدق المجانين كمثل صدقه ؟ بلى ! وانه لا يوجد في العالم كله كمن يكذب بلا داع . لذلك فالصدق الذي ينبذ وراء ظهريا أو ان الخوف والخطر لن يدخل في زمرة الاخلاق الحقيقية . الا ان أحرى المواقع بالصدق هو الذي يخاف الانسان فيه على نفسه أو عزته أو ماله . وتعليم الله تعالى فيما يلي :

حدود الصدق

« فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٢٢ : ٣١) وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا دُعُوا .... وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ * وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ .... (٢ : ٢٢٣) وَإِنْ قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى .... كُونُوا قَوَّامِينَ

بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ .... (٤ : ١٣٤) وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا .... (٥ : ٢) وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ الخ ... (٣٣ : ٣٥) وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .... (١٠٣ : ٣) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .... » (٢٥ : ٢٣)

أي ان ارباب الصدق لا يحضرون مجالس اهل الكذب وانهم يتواصون فيما بينهم بالصدق

خلق الصبر وشروطه

ومن الحالات الطبيعية الصبر الذي يلجأ اليه الانسان في المصائب والاسقام والآلام التي تفاجئه دوماً والتي يصبر عليها في آخر الامر بعد ان يكون قد استذرف دموع الآماق وجرب كثيراً من النوح والجزع والفزع . ولكن اعلموا ان ليس هذا الصبر مما يعتبره كتاب الله المقدس في شيء من الاخلاق وانما هي حالة ناتجة لا محالة من الشعب والاعياء اي انه من طبيعة الانسان ان يولول

ويخمش وجهه اول ما تنزل به المصيبة ثم لا يعتم ان يهدأ روعه بعد استنفاد شيء كثير من غليانه ثم في نهاية الامر لا يسعه الا ان يرجع القهقرى . فانك الحالتان الطبيعيتان لا تكونان من الاخلاق في شيء وانما الخلق في ذلك فيما اذا فات الانسان صبر عليه ولم ينبس بكلمة الشكوى معتقداً ان الشيء لم يكن عنده الا وديعة الله تعالى وقال قد كان لله واسترده واني برضاه راض . ويعلمنا كلام الله المقدس في هذا الخلق كما يأتي :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ * فَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ * وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ * » (٢ : ١٥٠) أي ان الله سبحانه يخاطب المؤمنين ويقول لهم انه سيختبرهم من وقت لآخر بالامتحان فتباغتهم طوارئ الخوف احياناً وأحياناً بسهم الفقر

والمسغبة ويرزون يوماً في أموالهم ويوماً في انفسهم وآونة يخيبون مكسباً فلا يأتين السعي بالمرغوب المأمول وتارة تموت أولادهم المحبوبة ، فلا يحزنن والحالة هـذه ، بل فليستبشرن لانهم اذا آلمتهم ملمة يقولون انا لله وانا أمانته وملكه فكان احق بالامانة ان ترجع الى مولاها فهؤلاء هم الذين عليهم صلوات الله وبركاته وهم أولئك الذين اهتدوا الى سبل ربهم

وخلاصة القول ان الخلق المذكور في الآيات السابقة اسمه الصبر والرضاء بمرضاة الله واسمه العدل ايضاً باعتبار معنى من المعاني فان الله تعالى سبحانه ما دام يساير الانسان طول حياته فيما يشتهيه ويقضي له الوفا من حاجاته كما يريد ويبتغيه . وقد اولاه من النعم حسب المرغوب ما لا يستطيع أن يحصلها ابداً ـ ما دام هذا شأنه معه فليس اذاً من شرط الانصاف ان لو أبى الله الا مشيئته في أمر ما اعرض عنه وسخط عليه وتذمر واشتكى او تزندق وضل سواء السبيل

المواساة

حق المواساة وحدوده

ومن الحالات الطبيعية التي تلازم جبلة الانسان حميتة لمواساة الخلق عامة ولقد توجد طبعاً في كل امة العصبية الملية وكثيراً ما يظلم الناس الاجانب بدافع الحماسة الطبيعية تعصباً لقومهم كأنما الاجانب ليسوا عندهم من الانسانية في شيء وحالتهم هـذه ليست بخلق وانما هي ثورة طبيعية وقد توجد ـ ان نظرنا بالتعمق ـ في الغراب وغيره من الطيور ولكنها لا تدخل مصاف الاخلاق البشرية الا اذا تصرف فيها الانسان بدواع الشفقة والعدالة وبمراعاة الموضع الملائم والمقام المناسب ، فاذا هي عندئذ خلق عظيم يسمى في العربية المواساة وفي الفارسية همدردي. والى هذا الخلق يشير الله تعالى بقوله : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَان (٥ : ٣)

وَلاَ تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ (٤ : ١٠٥) اي في مواساتهم وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (٤ : ١٠٦) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ ٱلذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ ٱللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً » (٤ : ١٠٨) اي انه كما لا ينبغي لنا ان نتبلد عن مؤازرة القوم ومواساتهم والذود عن حقيقتهم كذلك لا ينبغي لنا ان نظاهرهم بالاثم والعدوان وان نحامي عمن لا ينتهي منهم عن الخيانة وننصره بسائق الحمية الجاهلية فان الله لا يتولى أرباب الخيانة ابداً

الايمان بالله

الشعور الخفي بوجود الله

ومن حالات الانسان الطبيعية شعوره بالذات الاعلى وتحسبه لله الذي توجد له في سويداء قلبه جاذبية مكنونة والذي يبدأ فيه احساسه حين يخرج من بطن امه طفلاً فان اول ما يبديه الطفل بعد الولادة معاً من خواصه الروحانية هو انه ينجذب الى امه بالطبع ويظهر محبة لوالدته

ثم بعد ذلك يتفتح برغوم فطرته شيئاً فشيئاً مع انكشاف حواسه ومشاعره ولا تبرح تزداد زيادة مطردة في الاستجلاء والرونق جاذبية المحبة التي كانت مسكنة في باطنه بادىء ذي بدء حتى اذا تم نموها فاذا بالطفل لا يرتاح فيما سوى حضن امه . لا – بل انما في عطافها يجد تمام راحته . ولو انه يفصل عن امه ويطرح بعيداً يمرّ له العيش كله ولن يرى حق السرور ابداً الا في حجر والدته وان يوضع بين يديه ركام مركوم من صنوف النعم . فما هي هذه الجاذبية يا ترى – جاذبية المحبة التي يشعر بها المولود نحو والدته ؟

جاذبية المحبة ومقتضاها الحقيقي

انها في الحقيقة لجاذبية المحبة التي اودعت في فطرة المولود للاله الحق بل وانها الفعالة اينما انشأ الانسان او اصر الوداد وان هي الا جلوتها وانعكاسها حينما اظهر جائشة الهيام فكأنما الانسان يبحث فيما بين الموجودات ضالته التي قد نسي اسمها وضلّ رسمها لذلك نحب الانسان للمال

او الولد او الروح او ترنى روحه من رنيم اللحناء الفريض انما هو في حقية الامر التلمس لذلك المحبوب المفقود . وبما ان الانسان لا يمكنه ان يري بعينه تلك الذات اللطيفة الكامنة في كل شيء كمون النار الخافية على الجميع ولا يستطيع ان يدرك كنهه بعقله الناقص ، لذلك فقد اخطأ كثيراً في معرفته وعن ضلال نسب حقه الى غيره ـ وما ضرب الله تعالى في القرآن المجيد مثلا من ان هذا العالم شبيه بصرح ممرد من قوارير تجري من تحتها المياه بتدفق. فاذا كل ناظر ينظر القوارير يحسب القوارير ايضاً لجة ويخاف ان يمشي عليها كما يخاف المشي على الماء مع انها في الاصل زجاج ـ زجاجاً شفافاً ـ فكذلك الاجرام الجسام اللواتي يتلألأن في كبد السماء هي تلك القوارير الشفافة اللآئى عبدن خطأً وقد كانت القدرة العليا الفعالة من ورائهن الجارية خلالهن كالماء جرياً دفاقاً ، ولكنما هو الانخداع البصري . ان عبدة المخلوق يعزون الى هاتيك القوارير ما تديره تلك القدرة من افعالها ـ فذا هو تفسير

الآية « انه صرح ممرد من قوارير (٢٢ : ٤٤) »

الكون الصامت والمعرفة الناقصة

وصفوة القول بما ان ذات الله تعالى مع انها ازهر للغاية اخفى ما يكون ، لذلك لم يك هـذا النظام المادي المتجسم امام أعيننا ليكفي وحده في معرفته وهذا هو السبب في ان الذين اعتمدوا على ظواهر هذا النظام مع انهم ما برحوا ينظرون بكل امعان في ترتيبه الاحكم الاتقن المشتمل على ما لا يحصى من العجائب حتى لقد برعوا في علوم الهيئة والطبيعة والفلسفة افانين البراعة وحتى لكأنهم جاسوا خلال السموات والارض وعرفوا ما هناك باعينهم ومع كل هـذا ما استطاعوا النجاة من ظلمات الشكوك والشبهات بل وقع اكثرهم في انواع الاضاليل والاوهام وذهبوا فيها شطر المذاهب . وان كان قد مر ببالهم شيء من خيال وجود الخالق فلم يكن ذلك الا انهم لما رأوا النظام الاحسن الاعلى خطر لهم انه يجب ان يكون لهذا الكون العظيم ذي النظام الحكيم والصنع البليغ من خالق.

ولكن من البديهي ان هذا الحكم ناقص وهذا العرفان غير كامل اذ لا يتساوى القولان ان هذا الكون يلزمه خالق وان له خالقاً . لذلك ما كانت معرفتهم تلك الا قياساً بحتاً لم يكن يبعث في الفؤاد الطمأنينة ويزيل من القلب الوساوس الكلية ـ لا ولا هي بالكأس التي تطفي ظمأة المعرفة الكاملة التي وضعت في فطرة الانسان . بل وان كهذه المعرفة الناقصة ذات خطر شديد فانها لا شيء ولا نتيجة لها بعد شيء كثير من الجعجعة

فالحاصل ان مشاهدة الفعل وحدها لا تقنع الانسان ما لا ينبيء الله عن وجوده بكلامه كما قد أنبأ عنه بفعله

المعرفة الكاملة وضروة المكالمة الربانية

ومثال ذلك مثال الحجرة المغلقة العجيبة التي أغلقت من داخلها فعند رؤيتنا اياها على هذه الهيئة لا بد وان يخطر ببالنا لاول وهلة انه ليوجد في داخل الحجرة من وضع الاغلاق لان تغليق الداخل مستحيل من الخارج . وأما اذا لم يحر جواباً مهما ناديناه بالتكرار على توالي الايام

والسنين بدلنا رأينا وقلنا ان ليس هناك من فذ وخلنا ان الاغلاق انما وضعت بصنع مجهول فهذا هو حال اولئك الفلاسفة الذين قصروا معرفتهم على المشاهدة فحسب . وانه لعمري للخطأ العظيم ان يظن الا آله كميت لا يقيمه من ضريحه الا الانسان . فياويحه من آله ! ! ان كان هو ممن تدل عليه مجهودات البشر وحدها فقد ذهبت آمالنا فيه هدراً باجمعها ! ! كلاّ بل انما هو الله الذي ما زال منذ الازل يدعو الناس اليه بقوله ها أنا موجود . الا انها الوقاحة الشديدة أن نظن ان للانسان على الله من احسان في معرفته اياه وانه ان لم يكن الفلاسفة لبقي كما كان مفقود الخبر ولذلك من الجرأة العظيمة ان تقول كيف يقدر الله على النطق وليس له لسان ! ! ألم يخلق السموات والارض بدون يدين جسمانيتين ؟ وهل لا يدري العالمين قاطبة بغير عينين جسمانيتين ؟ ام لا يسمع دعواتنا بدون اذنين جسمانيتين ؟ بلى انه ليأتي كل ذلك من غير شيء . أفليس من الضروري اذا ان يتكلم أيضاً مثله ؟ بلى وانه كذلك ليس

بالقول الحق ان الله صمت الآن وقد كان كلامه فيما مضى

تكامل النبوة التشريعية

كلا . لا نختم نحن المسلمين على كلامه ومخاطباته في زمن من الازمان ـ الا ـ انه لا يزال ـ كما كان ـ الهاً رؤوفاً ورباً رحيماً ـ ما برح كالأول قادراً يغني السائلين رياً وثراءً من ينبوع الوحي الرباني وللآن مفتوحة أبواب رحمته كما كانت سابقاً . غير ان الشرائع والحدود قد ختم عليها عندما انقطعت الضرورات وان جميع النبوات والرسالات تكاملت عند بلوغها آخر نقطة الكمال سيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم

الكتاب الكامل

ان ظهور هذا النور الاخير من بين العرب لم يكن خالياً من الحكمة فان العرب كانوا شعباً من سلالة بني اسماعيل الذي فارق اسرائيل ثم قضت التقادير الالهية فرقتهم في صحراء فاران ومعنى فاران الهاربان لذلك فالذين فصلهم ابراهيم نفسه عن بني اسرائيل لم يكن لهم في شريعة

التوراة من نصيب كما هو مسطور انهم لا يرثون مع اسحاق فكان بناء عليه هجرهم ذوو الارحام وما كان لهم مع سواهم من صلة رحم او رابطة اخرى وزد على ذلك انه بينما جميع البلدان كانت قد بلغ اليها تعاليم الانبياء في وقت من الاقات كما يلوح ذلك من بعض ما يوجد فيها من العادات والاحكام والعبادات ، كانت بلاد العرب وحدها جاهلة لتلك التعاليم وكانت هي في ذلك في عقبان الانام كلها . فلما ان جاءت نوبتها أصبحت نبوتها عامة لتشتمل العالمين طراً بالبركات مرة اخرى ولتنشلهم مما وقعوا فيه من ضلال . « فأي كتاب تنتظر بعد هذا الكتاب الكامل » الذي تكفل عهدة الاصلاح البشري كله وما خص قوماً دون قوم كالصحف الاولى بل توخى اصلاح الاقوام جميعهم وبيّن مراتب التربية البشرية كلها وعلّم المتوحشين الآداب الانسانية ثم بعد أن جعلهم على الصورة البشرية أرشدهم الى الاخلاق الفاضلة

كمال القرآن المجيد

الا ان القرآن القرآن وحده هو الكتاب الذي أحسن الى بني الانسان بأن ميز فيما بين الحالات الطبيعية والاخلاق الفاضلة والذي أخرج الانسان من الحالات الطبيعية وأوصله الى ذروة الاخلاق العالية لم يقف ههنا بل طوى به المرحلة الباقيـة وفتح له ابواب العرفان المقدس للبلوغ الى مقام الحالات الروحانية «لا» ولم يفتح الابواب فقط بل لقد اوصل الى ذلك المقام ملايين من بني الانسان واوضح هكذا بالفعل بكمال الوضوح ما قد ذكرناه سابقاً من الاقسام الثلاثة من التعليم. وحيث ان القرآن جامع لجميع التعاليم التي هي مدار ضرورات التربية الدينية، لذلك ادعى انه هو وحده اكمل دائرة التعليم الديني كما يقول: « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً » (٥ : ٥) أي ان منتهى الكمال الديني هو ذلك المفهوم الذي تضمنه كلمة الاسلام من ان يكون الانسان كله لله وان يبتغي

نجاته بتضحية نفسة ولا غير. ان ابراز هذا المفهوم من حيز النية والارادة الى حيز العمل لهو تلك النقطة التي حيث تنتهي الكمالات كلها. فالاله الحق الذي لم يهتد الى معرفة الحكماء قد هـدى اليه القرآن واتخذ لذلك منهاجين ـ الاول هو المنهاج الذي يزداد به العقل قوة وذكاء في استنتاج الأدلة والبراهين ويتقي الخطأ والعثار في المعقولات وأما المنهاج الثاني فهو روحاني سنذكره ان شاء الله تعالى في جواب السؤال الثالث وهاؤم انظروا ما أحسن وما ابدع ما استدل به القرآن الحكيم عقلاً على وجود الله تعالى

الادلة العقلية

على وجود الله تعالى

يقول: « رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » (٢٠ : ٥٢) يعني ان الله هو الرب الذي وهب كل شيء خلقه بحسب حاله وأودع فيه من الخواص ما يستكمل به

صورته الغائبة وهداه الى مقتضيات فطرته . ان الآية ذات معنى جليل يجب ان نستقرأ مضمونه الواسع بالنظر الى تكوين الحيوانات على اختلاف أجناسها ـ يجب ان نستقرأ في بنية الانسان وفي هيا كل دواب البر وسوابح البحر وفي قوالب الطيور قواطعها واوابدها ـ حتى تتجلى لنا المشيئة الربانية والقدرة الالٓهية بأوضح جلاء . الا كل شيء في تناسب موزون . فليتدبر القراء انفسهم موضوع الآية الجليلة فانه في غاية من المعاني

والدليل الثاني على وجود الله تعالى ـ هو من قبيل الاستدلال بالعلة والمعلول . يعتبر القرآن المجيد ذات الله تعالى علة العلل ويقول في شأنه : وَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَى (٥٣ : ٤٣) اي ان سلسلة العلل والمعلولات في نظام هذا العالم تنتهي الى الله سبحانه وتعالى . وتفصيل هذا الاجمال ان جميع الموجودات مرتبطة بعضها ببعض ضمن سلسلة العلة والمعلول . لذلك ظهر في حيز الوجود عدد عديد من العلوم والفنون ، لانه لم يخرج من هذا التسلسل نوع

من انواع المخلوقات فكان منها للبعض بمثابة الاصول ومنها كالفروع ومن البديهي ان العلة تقوم اما بذاتها او بوجود علة أخرى وهذه في نوبتها تقوم بثالثة وهلم جرا ولا يصح البتة ان سلسلة العلل والمعلولات في هذا المحدود لا تنقطع عند حدّ ما وانها غير متناهيه بناء عليه لا مندوحة من التسليم بأنها تنتهي لا محالة بعلة المعلولات الاخيرة فالذي ينتهي اليه هذا النظام هو الله تبصروا رعاكم الله الآية « وَإِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ » ان كيف تبين الدليل المذكور بابلغ بيان مع اختصار الفاظها

واستدل على وجوده سبحانه وتعالى بدليل آخر قائلا « لاَ ٱلشمسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلاَ ٱللَّيْلُ سابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » اي لا الشمس تلحق القمر ولا الليل وهو مظهر القمر - يمكنه ان يتعدى النهار الذي هو مظهر الشمس بشيء ما ، ولا يمكن لواحدة منهما ان تتجاوز حدودها المقدرة فلو لم يكن من وراء الحجاب مدبر ينظم مسيرها لكان قد اختل نظام الكائنات كلها -

وهذا دليل جم الافادة للمتفكرين في هيئة الافلاك لان النظام الفلكي عبارة عن عدد لا يحصى من كرات ضخام بحيث ان حدوث قليل من الخلل فيها يدمر الكون كله ، فما أعظمها من قدرة اذ انها لا تتصادم ولا تغير من سيرها قيد شعرة لا ولا هي اندثرت ولا نقص من آلاتها واجزائها من شيء مع توالي العمل طول هذه المدة فكيف امكن يا هل ترى ان دام هذا النظام العظيم من تلقائه منذ الدهور الطوال ان لم يكن هنالك من ورائه مهيمن حفيظ . الى هذا السر الغامض يشير الله تعالى في موضع آخر بقوله :

« أَفِي ٱللّٰهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْاَرْضِ » (١٥ : ٢)

ثم يدلى دليلاً آخر لطيفاً على وجوده سبحانه وتعالى في الآية : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَام » اي كل شيء في معرض الزوال وأما الباقي فهو الله ذو الجلال والاكرام . لنفرض ان تنشق الارض قطعاً قطعاً وتندك السموات دكاً دكاً ويغدو الكون كله هباء منثوراً ثم ان تهب بها المحوة تعفو كل اثر

منها وتجعله عدماً بحتاً ثم مع هذا كله يسلم العقل بل يرى الوجدان السليم من الضروري ان يبقى بعد هذا الفنا شيء لا يفنى ولا يقبل تغييراً ولا تبديلاً وان لا يزال على حالته الاولى فذلك الشيء هو الله الذي ابرز في الوجود الصور الفانية كلها

ثم يقدم دليلاً آخر على وجوده تعالى قائلاً: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» (٢ : ١٢١) اي سألت الارواح فأجبن كلهن باني ربهن . يبين الله سبحانه في الآية المذكورة حكاية الارواح خاصيتها التي اودعها فطرتهن . ولا ريب ان الايمان بالله غريزة من الغرائز الجليلة لذلك فما من روح تستطيع ان تنكر وجوده من حيث الفطرة وان المنكرين يجحدون من حيث انهم لا يجدون في زعمهم دليلاً وهم مع هذا الجحود يسلمون بأن كل حادث لا بد له من محدث . كلا لا يوجد في العالم من غمر واحد اذا بدا في الجسم داء اصرّ على ان ليس للداء من علة في الباطن — لو ما كان نظام هذا الكون منضبطاً بعرى العلل والمعلولات

لما أمكن الانباء بانه في يوم كذا يحصل النوء او تهب العاصفة او يحدث الخسوف او الكسوف او ان في وقت كذا يموت المريض او انه الى وقت كيت وكيت يلحق عرض كذا ـ كذا او كذا من الامراض ـ جلل لاصبحت اذاً محالاً كل هذه الامور بدون تلك السلسلة المنظمة ! لذلك فالعالم المحقق ان لم يقر بوجود الله تعالى صريحاً فانه قد أقر به بوجه من الوجوه وذلك لأنه ما برح كثلنا في التفتيش عن الاسباب للمسببات وان هذا نوع من الاقرار ولو كان غير كامل

ثم اننا لو خدرنا المنكر بوجود الله تعالى بطريق ما بحيث انه عطل من جميع الارادات وذهل عن خواطر الحياة الدنيا وأصبح في تصرف ذي سلطان أعلى ثم استنطق، لاعتراف بوجود الله في حالته تلك ولما كفر به ـ كما قد شهدت به تجارب اكابر المجربين . فالى مثل هـذه الحالة تشير الآية المذكورة والمقصود من الآية ان الجحود بوجود

الباري انما هو الى الحياة الدنيا والا فان الفطرة لطافحة بالايمان

صفات الله تعالى وأفعاله

هـذه هي بضعة أدلة على وجود الخالق عز وجل ذكرناها كأمثلة من دلائل الكتاب الحكيم. وينبغي ان تعلموا بعد هذا ان القرآن المجيد ـ فوق ذلك ـ وصف لنا ذات الآله الذي دعانا اليه واخبر بصفاته كما يلي: « هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ * هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ .... ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ . هُوَ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .... ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ * قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ

الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ »

الوحدانية

انما قال « هُوَ ٱلَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ » بأنه لو كان معه من إله شريك لجاز ان تغلب سلطته على سلطته وتتعرض للخطر ألوهيته من أجله ـ لكنه هو الآله الكامل المستكمل لجميع المحامد والمحاسن والكمالات بحيث ان لو أردنا أن ننتخب من بين جميع الموجودات معبوداً باعتبار الصفات الكاملة او ان لو تصورنا في ذهننا صفات أحسن ما يمكن وأعلى ما يكون من معبود ، لكان من بين جميعها الآله الاعلى الذي لا أعلى منه أبداً ـ ذلك الآله الذي ظلم أن يشرك في عبادته من هو دونه

العلم الكامل

وأما قوله « عَالِمُ ٱلْغَيْبِ » فمعناه انه هو نفسه يعلم ذاته ولا يقدر أحد ان يحيط به . اننا نستطيع ان نرى بالجملة الشمس والقمر وكل مخلوق الا اننا عاجزون عن رؤية الله بجملته . وقال عالم الشهادة أي لا شيء مستتر من

نظره . لا يصح أن يدعى الاله ثم يغفل عن علم الاشياء كلا ان العالم ذرة بمرآه وأما الانسان فلا يستطيع كمثل رؤيته . انه يعلم متى يضعضع هذا النظام وانى يقيم القيامة ولا يعلم أحد سواه أيان يكون [illegible] الله الذي يعلم بالساعات جميعها

الرحمانية

وقال هو « ٱلرَّحْمَنُ » أي انه من فضله ولا مكافأة لعمل ما يهيء لذوات الحياة من قبل وجودها وأعمالها كل ما تحتاج اليه من أسباب المعيشة والراحة كما خلق سبحانه الشمس والارض وغيرهما من المخلوقات قبل وجودنا ووجود أعمالنا ان هذه الموهبة اسمها في كتاب الله الرحمانية وباعتبار هذا الصنيع يدعى الله بالرحمن

الرحيم

وقال « ٱلرَّحِيم » اي انه يجزى على الاعمال الصالحات خيراً ولا يضيع لاحد عملاً . وباعتبار هذا الاحسان يدعى بالرحيم وصفته هذه تسمى الرحيمية

الملكة والسلطة

وقال « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينْ » اي انه جعل في يده مجازاة كل أحد وليس له من وكيل فوّض اليه تدبير السموات والارض وقعد نفسه جانباً لا يعمل شيئاً ووكيله ذلك ينعم ويعذب ويبرم وينقض

القدوسية

وقال « الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ » أي انه السلطان الذي ليس فيه وصمة عيب ـ من الواضح ان المملكة البشرية لا تخلو من نقص فانها مثلاً لا تستطيع القيام ان لو جلت عنها الرعية ولجأت الى مملكة اخرى او من انى يجبي لها الخراج ان أجدبت الرعية كلها أو ماذا عساها تثبت من من لياقتها ان لو قامت الرعية تجادلها وتقول لها ما أنت بافضل منا وأحق بالحكومة هذا وأما السلطة الالهية فليست كاحدى هذه السلطات ان الله لقادر على ان يهلك الملكوت كله ويأتي بخلق آخر جديد . فلولا انه

خالق قدير فعّال لما يريد لما كان تيسر له ان تقوم دولته بدون ظلم واعتساف . . .

التعريض بفساد الاعتقاد المجوسي

لأنه من انى يتأتى له - يا ترى - ان يأتي بالعالم الثاني بعد أن يكون قد شمل العالم بالغفران والنجاة ؟ فهل هو ممسك الناجين مسترد منهم عطية الغفران والنجاة بالظلم لينجيهم الى الحياة الدنيا ؟ اذا تكون الهيئة ذات النقص ويكون هو كمثل ملوك الدنيا ذا عيب - الذين يسنون القوانين للناس ثم يتبرطمون على كلمة كلمة واذا رأوا او ان مصلحتهم الشخصية ان لا معاث عن الظلم قضاء لمآربهم وجدوا الظلم شرابا سائغا . لا يجيز القانون السلطاني مثلاً ان يغرق ركبان سفينة اتخاذا لباخرة . فاما الآله القدير فلا ينبغي ان يعرض له هذا الاضطرار . فلو ما كان الآله كامل القدرة وخالق الموجودات من العدم المحض لكان اما كضعفاء الاقيال يتصرف بالجور والعدوان او كان قد انصف واستقال من الوهيته . الا - بل ان فلكه

المشحون مع كل الاقدار سائر على خط مستقيم من العدل والحق.

السلام

وقال « ٱلسَّلَامُ » أي انه منزهٌ عن جميع العيوب مصون من المصائب والمشقات كلها بل وانه المعطي السلام وظاهر انه لو كان بنفسه عرضة النوائب ـ بأن يقتل أو يهان بيد الناس او يخفق سعياً ويخيب في مقاصده ، فماذا عساه ان تأمن قلوبنا على سوء حاله هـذا وتطمئن بأن كهذا الآله لا محالة مخلصنا من الآلام!! يقول تعالى في الآلهة الباطلة : « إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ ٱجْتَمَعُوا لَهُ * وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ * ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ * إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٢٢ : ٧٢)
(٣٢ : ٧٢)

الايمان

وقال « أَلْمُؤْمِنُ » اي انه واهب الأمان والمقيم الدلائل على توحيده وكمالاته وهذا اشارة الى ان المؤمن بالله الحق في أمان سرمدي لن يخزى في مجلس من المجالس ولا يخجل امام ربه ، وذلك لأن معه أقوى البراهين . وأما عابد الاله الباطل فهو من امره في ريب شديد يسوق كل لاغية باغمة مساق الاسرار الغامضة الاكتناة تسللا من خزية الاستهزاء واخفاء للاغاليط الفاحشة

الهجنة والجبروت والكبرياء والخلق والبرء والتصوير

وقال « أَلْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ » (٤٩ : ٢٣) اي انه الحافظ للجميع الغالب عليهم وانه الراتق والفاتق والمستغني بذاته كل الاستغناء . وقال « هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » (٤٩ : ٢٤) أي انه خالق الارواح كما انه خالق الاجسام وانه المصور في

الارحام وان له جميع الاسماء الحسنى التي يمكن أن تتصور

السبوح والعزة والحكمة

وقال « يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٤٩ : ٢٤) أي ان سكان السموات يذكرون اسمه بالتسبيح والتقديس كما سكان الارض وفي هذه الآية اشارة الى ان الاجرام السماوية فيها العمران وان أهلها أيضاً مأمورون برعاية الهدايات الآلهية

القدرة الكاملة

وقال « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وفي هذا سلوان للعابدين فانه ماذا عسانا نرجو منه لو كان عاجزاً غير قادر

الحمد والربوبية والرحمة والمالكية

وقال « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » اي انه متصف بجميع المحامد وقد أبدع كل العوالم وكفلها بالتربية الكاملة والرحمة الشاملة وانه

نفسه مالك يوم الدين لم يجعل عهدته في يد أحد .« اجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » اي انه مستجيب الدعوات ، « وَهُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » اي انه السرمدى الباقي للأبد وانه حياة الاحياء وقوام الموجودات كلها فلولا انه الازلي الابدي لكنا دائماً أبداً في وجل من موته قبل موتنا

الحياة والقومية والصمدية

وقال « هُوَ اللهُ أَحَدْ ـ اللهُ الصَّمَدْ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدْ » أي لا هو بوالد ومولود وليس له نظير ولا متجانس

الاصل القديم في توصيف الله تعالى

ولا يغيبن عن البال أن الاعتقاد الصحيح بوحدانية الله وعدم الافراط والتفريط لهو العدل الذي بمراعاته يقوم الانسان بحق مولاه الحقيقي . وهذا كله القسم الاخلاقي الذي أوردنا من تعاليم القرآن المجيد والاصل الاساسي في جميعه هذا ان الله تعالى صان الاخلاق طراً من الافراط

والتفريط وسمى كلاً منهما باسم الخلق ما دام لا يعد وحده الواجب ـ لا نقصاً ولا زيادة ـ وبيّن ظاهر ان الخير الحقيقي هو انما الوسط بين الطرفين ـ بين الزيد والنقصان او الافراط والتفريط ـ فكل عادة تجذب الانسان نحو المركز وتثبته فيه هي التي تنشئ الخلق الفاضل. ان معرفة المواقع الوسط. فلو أن الفلاح يبذر مثلاً قبل الاوان او بعد فواته فانه في كلتا الحالتين يفارق الوسط الا ان الخير والحق والحكمة كل اولئك في الوسط والوسط في البصيرة بالمواطن او بعبارة أخرى ان الحق هو الذي يتوسط دائماً بين الباطلين المتقابلين ولا شك ان التمسك بين المواقع لهو مما يتمم الانسان دائماً في الوسط

ان معيار الطريق الوسطى في معرفة الله هو ان لا يلحد الانسان في وصفه الخالق ما فينفي عنه الصفات الجسمانية كلية ولا ان يشبهه بالموجودات فيجعله كهيئتها فهو هذا الطريق عينه الذي أتبعه القرآن المجيد في صفات الله تعالى. فبينما يقول انه يعلم ويرى ويسمع ويتكلم ينزهه

عن مماثلة المخلوقات ويقول :

« لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ .... (١٦ : ٢٦) فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الأَمْثَالَ » (٥٢ : ٩) لذلك فتحميد الله تعالى بين التشبيه وبين التنزيه هو المقصود

الفارق بين التعليم الاسلامي وغيره

فالحاصل ان التعليم الاسلامي كله تعليم قصد واعتدال . ان سورة الفاتحة أيضاً تعلم الاستقامة فان المقصود بالمغضوب عليهم في الدعاء «إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ » أولئك الذين يستعملون قوتهم الفيضية خلافاً لمرضات الله وينقادون لشهواتهم السبعية والمراد بالضالين اولئك الذين يطاوعون اهواءهم البهيمية ، وأما قصد السبيل فهي التي ذكرها في « أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » وقصارى القول ان الله سبحانه وتعالى قد هدانا الى الوسط بالقرآن المجيد وقد كان من قبل شدّد باحكام الانتقام في التوراة وبالغ في تعليم

العفو والسماح في الانجيل ـ أما هذه الامة فعلمها التبصر بالمواقع والاقتصاد في شؤون الحياة وجعلها وسطاً بين هذا وذاك وكما ينوه عنها سبحانه وتعالى بقوله : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . . . . الخ » (٢ : ١٣٧) أي جعلناكم العاملين باوساط الامور وعلمناكم اياها . فبورك من سلك قصد السبيل وان خير الامور اوسطها

الحالات الروحانية

السؤال الثالث هو انه ما هي الحالات الروحانية ؟ لقد ذكرنا فيما سبق ان منبع الحالات الروحانية هو ـ على ما هدانا اليه القرآن المجيد ـ النفس المطمئنة التي توصل الانسان من مرتبة الانسان الاخلاقي الى مرتبة الانسان الرباني . ويقول الله جل شأنه في كتابه العزيز : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » (٨٩ : ٢٨ ـ ٣٠)

وتبياناً للحالات الروحانية يجمل بنا أن نفسر هذه الآية بشيء من الايضاح

المعراج الروحاني في الحياة الدنيا

فلتعلموا ان اكبر ما يكون للانسان من درجات الحالات الروحانية في الدنيا هو ان يرتاح بربه وان يكون له فيه كل السلوان والسرور واللذة ـ ان هذه لتلكم الحالة التي يقال لها جنة الفردوس بالفاظ اخرى لقد يظفر الانسان في هذه الحالة بجنة حاضرة لقاء وفائه واخلاصه وصدقه الكامل ـ بينما غيره من الناس لا يزال نظرهم في الجنة الموعودة هو في الجنة الموجودة ساكن . عند بلوغ هذه الدرجة يدرك الانسان ان العبادة التي كان حمل عبئها لم تكن في الحقيقة الا الغذاء الذي ينشأ منه وتنمو به روحه والذي هو قوام عظيم لحياته الروحانية . وليس الحصول على النتيجة موقوفاً على وجود الدار الآخرة بل انى في هذه يحصلها الانسان اي انه تتبدل بالمحرك المقدس الذي يكون منشأ النفس المطمئنة جميع اللوائم التي بها تلذعه نفسه

اللوامة وتلومه على حياته الدنسة ولكن لا تستطيع معه ان تبعث فيه كما ينبغي ميول الخير وتنفره من الاهواء الباطلة حق النفرة كما لا تقدر ان تمكنه تماماً من الثبات على الخير . فمتى ما بلغ هذه الدرجة اوشك له ان يحوز الفلاح الكامل ، فلا تلبث أن تأخذ الشهوات النفسانية في الخمود من تلقاء نفسها ويهب على روحه نسيم منعش فاذا بالانسان يرى ضعفه السابق بعين الحسرة والندامة آنئذ يطرأ على فطرة الانسان انقلاب كبير ويحدث في عادته تغير عظيم فيتباعد عن حالاته الاولى بعداً بعيداً ويغسل ويطهر ويكتب الله بيده حب الخير في فؤاده وينزع بيده رجس الاثم عن جنانه ويخيم جيش الحق في مدينة القلب بقضه وقضيضه ويستولى الصدق على أبراج الفطرة كافة ويغلب الحق ويزهق الباطل ويلقي سلاحه وتكون يد الله فوق قلب هذا الانسان ـ وفي ظل الله يمشي كل خطوة الى هذه الاوصاف عينها يشير سبحانه وتعالى في الآيات الآتية : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ

بِرُوحٍ مِنْهُ . وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ * أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ـ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً * وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٥٨ : ٢٢) وَجَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » (١٧: ٨٣)

نزول الروح القدس والتزكية الكاملة

فجميع هذه الاشارات الى نفس الحالة الروحانية التي للانسان عند وصوله الدرجة الثالثة من معراجه ولن ينال الانسان بصيرة صادقة ما لم يتكيف بالحالة المذكورة. وقوله سبحانه وتعالى: « كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » فهو اشارة الى أن الانسان لا يمكنه أن يتزكى تزكية خالصة الا اذا اشعفته به العناية الربانية. يكون حال الانسان في أثناء تطوره بالنفس اللوامة انه يعثر حيناً بعد حين ويتوب مرة بعد اخرى بل ربما يقنط من صلاحيته ويظن مرضه داءً عضالا لا علاج له ولا برء منه ولا يزال كذلك الى مدة من الزمان حتى اذا انسلخ

الاجل المقدور انبثق فيه النور دفعة واحدة بياناً أو ضحاء وفي النور قوة ربانية ما أن يتجلى الا ويحدث معاً انقلاب عظيم ويشعر معه بتصرف قوي ليد غائبة ويتمثل قبلاً عالم عجيب فهنالك يعلم الانسان ان الله موجود ويرتد بصيراً بما لم يكن يدري من قبل . ولكن كيف لنا ذلك النور وأنى السبيل اليه؟

الصراط المستقيم في تحصيل الروحانية المقدسة

فاعلموا ان في هذا العالم الذي هو عالم الانسان لكل معلول علة ولكل حركة محركا ولتحصيل كل علم طريقاً يسمى الصراط المستقيم ولا يوجد في الدنيا شيء ينال عفواً بدون التمسك بالسنن التي قدرها له القدير منذ البدء ولقد تشهد النواميس الطبيعية بأن لكل شيء صراطاً مستقيماً يتوقف عليه حصوله طبعاً . فلو كنا مثلاً في مقصورة مظلمة واحتجنا الى ضوء الشمس فلنا الطريق السديد في ذلك أن نفتح النافذة المحاذية للشمس فاذا الضوء دخل

المقصورة دفعة واحدة قد أضاء لنـا . انه لكذلك لا بد وأن يكون هنـاك من نافذة نستفيض منهـا فيوضاً من بركات رحمة الله الحقيقية اليقينية ومن طريق خاص نحصل به الروحانية المقدسة ! نعم وذلك الطريق هو أن نفتش للامور الروحانيـة عن صراط مستقيم كما لا نفتأ تفتش للامور الروحانية عن صراط مستقيم كما لا نفتأ نفتش عنه للنجاح في مآربنا الحيوية . ألا فهل يمكن ان يكون ذلك الصراط بان نتحرى الوصال الرباني مجرداً بقوة عقلنا وبفضل مختلقات أنفسنا وهل يتأتى ـ محضاً بمنطقنا وحكمتنا ان تنفتح أبوابه ـ تلك التي سبق ان لا تنفتح الا بيـده القديرة ؟ ألا فاعلموا يقيناً أن ليس هذا المزعوم صحيحاً . اننا لن نستطيع أبداً ان ندرك الحي القيوم بتدبيرنا وافكارنا المجردة . كلا بل الصراط المستقيم الوحيد فيه ان نقف حياتنا وجميع قوانا في سبيله اولا ثم نأخذ في الدعاء ولا نزال به حتى نجد الله بالله وان من جميع الادعية أحب الدعاء الذي يعلّمنا مقام السؤال عنه ويشخص أمام أعيننا

جيشان الفطرة الروحانيّ هو ذلك الدعاء الذي قد علمناه الله في كتابه المقدس في سورة الفاتحة وهو هذا :

افضل الادعية دعاء سورة الفاتحة

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ . أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينْ . آمِينْ »

ان الاعتراف بالعبودية بصيغة الجمع انما يعنى اننا بجميع قوانا في عبادته مفيضون وبوحيده خاضعون ولا يخفى ان الانسان باعتبار قواه الباطنة أمة كاملة وان سجود جميع القوى لله تعالى بهذا المعنى هو نفس الحالة التي تدعى الاسلام

تؤذن سورة الفاتحة بان نعم الله تعالى لا يكون موردها الا اولئك الذين قد ضحوا أنفسهم في سبيل الله ووقفوا له حياتهم وانغاثوا في مرضاته ثم ما برحوا واصبين

على الدعاء رجاء أن يسعدوا بكل ما يمكن ان يعطاه الانسان من البركات الروحانية من قرب الله ووصاله ومكالمته ومخاطبته ، يعبدون الله بهذا الدعاء من جذر جنانهم وجميع قواهم ولا يبرحون العتبة الربانية لطرفة عين ويجتنبون الذنوب ما أمكن لهم ان يجتنبوا ويبتعدون من سبيل المغضوب عليهم حتى المقدور . وبما انهم يبغون الله بهمة قعساء وصدق منيع ، يجدون الله ويروون بكؤوس دهاق من عرفانه المقدس

الاستقامة الشرط الاول في سبيل الفلاح

ان الاستقامة المذكورة في سورة الفاتحة لتومئ الى ان الفلاح الحقيقي في العالم الروحاني انما هو منوط بالاستقامة الكاملة والمراد بالاستقامة الكاملة حالة صدق ووفاء ـ تلك التي لا يضرها الابتلاء البتة أي انه يجب ان تكون تلك الوصلة بحيث لا يمكن أن يبترها السيف ولا تحرقها النار ولا ينقصها آفة من الآفات . ان موت الاحباء لا يقطع عنها وفراق الاوداء لا يخل بها لا ولا يرعبه

خوف الهوان ولا يفزع القلب الموت الفظيع ذرة ما فما أضيق هذا الباب وما أضيقه !! وما أوعر هذا السبيل وما أوعره !! آهاً والف آهٍ !!

لالي هذه الوعوثة يشير الله جل شأنه بقوله : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ * وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٩ : ٢٤)

الاستقامة الموت

يظهر من فحواء هـذه الآيات جلياً انه من يشتري بمرضاة الله حب الاقربين والاموال فانهم آثمون في نظر الله يهلكون لا محالة

وذلك لانهم آثروا على الله الاغيار . ان هذه لهي المزية الثالثة التي يصير فيها الانسان ربانياً اذ يبتاع من

أجله ألوفاً من البلايا ويهوى اليه بكل صدق واخلاص بحيث لا يبقى له أحد ممن سواه كأنما الكل ماتوا له . فالحق انه لن يرى الاله الحي ما لم نمت نحن . ان يوم التجلي الرباني لهو ذلك اليوم الذي يطرأ فيه الموت على حياتنا الجسمانية . لنحن عميان ما دمنا لا نعمى عن رؤية الغير ونحن أموات ما لم نصبح في يد الله كالموتي . انه متى استوى وجهنا لمحاذاته تماماً ، فقد ظفرنا آنئذ بالاستقامة المنشودة التي تغلب الشهوات النفسانية وأما قبل ذلك فلا . وهذه هي الاستقامة التي تورد الحياة مورد الفناء . أن استقامتنا في سبيل الله لهي كما يذكره سبحانه : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ » (٢ : ١٠٦) أي أن نلقى بجراننا كالبدن بين يديه . كلا لا تحرزن درجة الاستقامة الا متى ظلت تشتغل في شغله جوارحنا وقوانا كلها جمعاء وأضحت له حياتنا وموتنا كما يقول : « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦ : ١٦٣) فاذا بلغ الانسان في المحبة بحيث ان موته وحياته قد أصبحا لله

لا لنفسه ، فعندئذ الآله الذي لم يزل منـذ الازل يحب محبيه يحل فيـه محبته فينشأ من بين امتزاج المحبتين نور لا تعرف الدنيا ولا تستطيع أن تفطن له . ومن أجل انها لم تعرف ، سفكت دماء ألوف من الصديقين والشهداء وقد دعوا محتالين ذوي أغراض نفسانية لان الدنيا ما قدرت أن ترى محياهم النوراني ، كما يقول سبحانه وتعالى :
« يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ » (٧ : ١٩٧)

جنة الدنيا وجنة الآخرة

وزبدة القول ان الانسان الدنيوي من حين منشأ ذلك النور ـ يصير من أهل الملكوت ، مالك كل كائن ينطق في داخله ويرى من لألاء ألوهيته ويتخذ جنانه المملوء بالحب الخالص عرشاً له ـ يكون له آلهاً جديداً ويظهر له جـديداً من سنته وعاداته منذ يكون هـذا الانسان جديداً من فضل تبدله النوراني . وليس انه آله جديد أو أن له عادات جديدة الا انهـا شؤون خلاف شؤونه المشهودة ، لا تدريها فلسفة الدنيا . ليكون هـذا

الانسان مصداق قوله جل شأنه : « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللّٰهِ ، وَٱللّٰهُ رَؤُوفٌ بِٱلْعِبَادِ » (٢ : ٢٠٣) أي انه ينجو من جميع الآلام من يبيع نفسه في سبيله ولابتغاء مرضاته ويشهد بتضحيته على حاله بأنه لله وانه يحسب نفسه شيئاً قد خلق لطاعة الخالق وخدمة المخلوق ، ثم بعد ذلك يقوم بخالص الاعمال الصالحات مما تخص كل قوة من القوى ـ يقوم بها بشوق ووجد وقلب شهيد كأنما هو ناظر في مرآة طاعة محبوبه الحقيقي . وان ارادته تنطبع بارادة الله وان لذته كلها تنحصر في طاعته وان جميع الاعمال الصالحات تصدر منه عن طيب وتلذذ ولا بشق النفس

فهذه هي الجنة الحاضرة التي يحظى بها الانسان الروحاني وأما جنة الآخرة فانها في الحقيقة ليست الا آثار هذه وظلالها ويمثلها القدرة الالهية في العالم الثاني عياناً في صور مجسمة . الى هذا المعنى يشير قوله تعالى : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٥٥ : ٤٦) وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً

طَهُوراً .... إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ـ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ـ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً * (٢٦ : ٥) وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧ : ٢٤) أي انه من كان رهباناً من الله هيباناً لمقام عظمته وجلاله له جنتان الواحدة دنياه هـذه والثانية جنة الآخرة . وهؤلاء الذين امحوا في الله قد سقاهم ربهم من الشراب ما نظف قلوبهم ونفوسهم وطهّر اراداتهم ونواياهم . إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * ويشربون من عين هم أنفسهم يفجرونها تفجيراً . وقد قلت فيما سبق أن كلمة « كافور » استعملت في الآية دون غيرها من جراء ان الكفر في وضع اللغة العربية معناه التغشية والاخفاء وان المراد به هو الاشارة الى انهم قد شربوا من كأس الخلوص والحب ما قد أخمد شهواتهم

وأبرد في قلوبهم محبة الدنيا بتاتاً . ومن القاعدة المطردة أن جميع الميول انما تنشأ من همزات النفس فاذا تناءت النفس عن الهمزات الخبيثة ولم تبق ثمة من علاقة ما ، طفقت الشهوات أيضاً تتناقص شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى بالكلية . فهذا هو المعنى الذي أراده الله تعالى وأفهمنا اياه بالآية المذكورة . أي انه من تبتل الى الله التبتل كله ، فقد بعد عن شهوات النفس بعداً بعيداً ــ وانه تبتل اليه بحيث أن قد ثلجت قلوبهم من لواعج الحياة الدنيا واندفنت شهواتهم كما تدفن المواد السامة بالكافور

حالة النقاهة وحاله الشفا الكامل

ثم قال انهم « يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً » وذلك لان زنجبيل مركب من كلمتين ــ من زناء وجبل ــ ومعنى زناء في اللغة العربية صعد فكأن معنى الجملة المركبة « زناء جبل صعد الجبل » واعلموا ان الانسان تعتوره حالتان من حين ينقلع عنه الداء الناجس الى أن تثوب اليه صحته بكمالها اي حالة النقاهة اذ تسري عنه حمياً

المواد السامة كلية وتفتأ سورة المواد المهلكة وتعود الحالة الى الصلاحية وتزول بخير وعافية الكيفيات القتالة ويركد الطوفان الجارف الذي كان قد ارتفع الا انه لا يزال الوهن في اعضائه فلا يتأتى منه عمل مما يكلف شيئاً من القوة بل ويكون هو حينئذ كالقائم من بين الاموات يهدج هدجاً ويحذر العثور على كل قدم ، ثم حالة الشفاء الكامل اذ تعود اليه الصحة الغريزية ويكتنز البدن بضعة ونشاطاً ويتجاسر معه ان يمارس المشاق فاذا به يتوقل في قلة الجبل من دون كلفة ويرقى فوق التلال الشاهقة عن طيب ونشاط ومثل ذلك يتيسر في الدرجة الثالثة من الارتقاء الروحاني واليه اشار الله تعالى في الآية المذكورة بقوله يسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ـ أي ان أولياء الله الكمل يستوفون نصيباً كاملاً من القوة الروحانية ويرتقون كبار العقبات وتتم على أيديهم صعاب الامور ويقدمون في سبيل الله أعظم الضحايا وأدهش القرابين

ان الزنجبيل في علم الطب اسمه بالهندية « سونته »

ومن خاصيته أن يزيد في الحرارة الغريزية كثيراً ويمسك الاسهال وقد سمي بالعربية زنجبيلاً لأنه يقوي الضعيف ويبعث فيه الحرارة بحيث يمكنه أن يتسلق الجبال وعرض الله تعالى من سرد هاتين الآيتين المتقابلتين في المعنى حيث ذكر في الواحدة الكافور وفي الثانيــة الزنجبيل أن يفهم عباده ان الانسان اذا أقلع عن الشهوات وسار نحو الصلاح بدت فيه اول ذي بدء حالة تسكن مواده السامة وتخفض من غلواء شهوات النفس كما يفعل الكافور في تسكين حدة السموم فهو لذلك ينفع في الهيضة والصالب ومتى ما زايلت شــدة السموم ونقه المريض من العلل الباطنة ابتــدأت مرحلة ثانية يستقوى فيهـا البليل من شراب الزنجبيل وهــذا الشراب الزنجبيلي انما هو تجلي الله على عبده بجماله وجلاله وهو غذاء روحه فمتى تقوى الانسان بالتجلي الرباني قدر أن يتسنم الاطوار العالية الشاهقة فاذا به يتجشم في سبيل الله من البأس الشديد ما يحير العقول وما لا يمكن أن يتكبد مثله أحــد الا اذا كان في قلبه

لاعجة الهوى والغرام : انه بالنظر الى هذه الحكمة عبّر الله تعالى عن الحالتين المذكورتين بكلمتين عربيتين احداهما الكافور ومعناها المسكن المغشي والثانية الزنجبيل يعني الصاعد وكذلك يجتاز السالكون مثل هاتين الحالتين في سلوكهم الروحاني

فلسفة رداد العقل والفتن الثلاث

ثم يقول : انا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً والمراد من هذه الآية أن الذين يرفضون الحق ولا يبغون الله من صميم الفؤاد يبلوهم الله برَداد الفعل فيعانون جهد البلاء في بلبال الحيوة الدنيا وأواسرها حتى لكأنهم مقرنون في الاصفاد وينهمكون في الشواغل الارضية كأنما شُدّت أعناقهم بالاغلال بحيث انها لا تدعهم يرفعون رأسهم نحو السماء وترتض صدورهم بحرقة الحرص والهوى يود أحدهم أن لو يجد هذا المال ويحصل ذاك العقار ويملك كذا وكذا من الممالك ويقهر فلاناً وفلاناً من الاعداء وان لو كان عنده القناطير المقنطرة من الفضة

والذهب والغنى المفرط وبما ان الله يراهم منغمسين في المعاصي بعيدين عن الاهلية غير اللائقين بجنابه لذلك يبتليهم بهذه الفتن الثلاث ـ وكذلك ههنا ايماء الى ان الانسان اذا فعل فعلاً قابل الله فعله هذا بمثله فمثلا اذا اوصد الانسان ابواب حجرته جميعها اتبع الله فعله بفعل منه بانه يطبق عليه الحجرة بالظلام وانما نسبنا الفعل الى الله لان جميع الامور التي أصبحت كالنتائج اللازمة لأفعالنا بمقتضى النواميس الطبيعية هي في الحقيقة أفعاله فانه سبحانه هو العلة المنتهى لجميع العلل والمعلولات وكذلك ان لو ابتلع الانسان سماً زعاماً مثلاً كان فعل الله بعد فعله هذا انه يهلكه كما انه ان اقترف فعلاً شنيعاً أعقبه الله بفعلته هذه فعلاً منه فيأخذه الداء الخبيث فكما يشاهد عياناً في حياتنا الدنيوية ان لكل عمل من أعمالنا نتيجة محتومة وان هذه النتيجة فعل الله فكذلك الامر في حياتنا الروحانية وهو كما يصرح به القرآن الحكيم في هاتين الآيتين : الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (١٦ : ٣) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (٦١ : ٥) أي ان الذين أفرغوا

الجهد كله في ابتغاء الله فقد استلزم عملهم هذا في نتيجته فعلاً منه وهو انه يهديهم سبيله وأما من أعوج ولم يُرد طريق الرشاد كان فعل الله بازاء فعلهم هذا انه يعوج قلوبهم وقد وصف الله تعالى هذه السنة باوضح بيـان في قوله : من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا أي انه من لم ير الله جل شأنه في الحيوة الدنيا لا يرونه في الآخرة وفيه اشارة الى انه في هذه الدار يتشرف الصالحون برؤية الله وانهم في هـذا العالم يتملون بمشاهدة محبوبه الذي يخسرون لوجهه كل شيء

نشأة الحيواة الفردوسية والحيوة الجهنمية

ومؤدى القول ان الحيوة الفردوسية يوضع أساسها في هذا العـالم كما ان العماية الجهنمية تنبت جرثومتها في ألواث الحيوة الدنيا . يقول الله سبحانه وتعالى بشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار (٢ : ٢٣) أي شبه الله تعـالى الايمان بالجنة وقد ضمن هذا التشبيه فلسفة علياء ونبهانا به الى ان العلاقة التي

توجد بين البستان والانهار لهي عين العلاقة التي توجد فيما بين الايمان والاعمال فكما ان البستان لا يمكن أن يبقى نضيراً بدون الماء كذلك الايمان لا يحيا بدون الاعمال الصالحات فان كان الايمان ولم تكن الاعمال كان الايمان لا شيء وان كانت الاعمال ولم يكن الايمان كانت الاعمال رياء الا أن هذه هي حقيقة الجنة الاسلامية بأنها ظل ظليل من ايمان الحياة الدنيا وأعمالها وما هي شيء جديد يتلقى الانسان من الخارج

ماهية الجنة الاسلامية

كلا — ان جنة الانسان تنشأ من باطن الانسان وان جنة كل امرئ انما هي ايمانه وأعماله الصالحات التي في هذا العالم يبدأ يشعر بلذتها ويرى حدائقها وأنهارها من وراء الغيب ثم اياها يشاهد عياناً في عالم الآخرة ولقد يعلمنا كتاب الله المقدس ان الايمان الخالص الصادق الثابت الكامل الذي يؤمنه أحدنا بالله ولصفاته وارادته انما هو روض بهيج ودوحة مثمرة وان الاعمال الصالحات أنهار — يقول سبحانه وتعالى : ضرب الله مثلاً كلمة طيبة

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين (١٤ : ٢٩) يعني بالكلمة الايمان الذي يتخلى من كل الافراط والتفريط والكذب والهزل والذي هو كامل من جميع الوجوه . فهذا الايمان يماثل الشجرة الطيبة السليمة من سائر العيوب المتمكنة عروقها في الارض والشامخة فروعها في السماء

كلمة الايمان وخاصيتها

التي تؤتى كل آن ثمرتها ولا يأتي عليها حين حتى لا تحمل في غضونها الثمر . لقد وصف الله تعالى للايمان ثلاثة علامات في تمثيله اياه بالشجرة الدائمة الا كل_العلامة الاولى أن يكون أصل الايمان وهو مغزاه الحقيقي راسخاً في وجيد القلب أي انه قد سلمّ بحقيقة الفطرة الانسانية والشعور العام ، والعلامة الثانية أن تكون فروعها في السماء بمعنى أن يكون الايمان مقروناً بالمعقولات توافقه السنن الطبيعية التي هي من أفعال الله تعالى أي انه يمكن أن يستشهد على صحته وماهيته بادلة مستنبطة من النواميس

المطردة وأن تكون تلك الادلة في السمو بمكانة عالية جداً بحيث لا يمكن أن يمسه شائبة الانتقاد البتة فكأنما هي في علوّ السماء لا يستطاع الوصول اليها والعلامة الثالثة ان تكون الفواكه دائمة الوجود غير منصرمة في حين من الاحيان والمقصود به أن تكون للايمان بعد ملابسته للاعمال تأثيرات محسوسة وبركات مشهودة دائماً أبداً في كل زمان ولا يكون أصلاً ان تنقطع يوماً ما

كلمة الكفر وخاصتها

ثم قال « مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار . (١٣ : ١٤) أي انها لا تقبلها الفطرة البشرية ولا تستقيم هي بصورة ما ـ لا بالبراهين العقلية ولا بالقوانين الطبيعية ـ ان هي الا روايات وأقاصيص وكما شبه القرآن المجيد أشجار الايمان الذكية بالرمان والاعناب وغيرهما من الفواكه الطيبة وأخبر انها تنسج يوم الدنيوية في صورها تيك الثمرات وتتراءى عياناً كذلك شبّه كلمة الكفر الخبيثة بالشجرة وسماها بالزقوم في الآية :

أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين. انها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين ـ ان شجرة الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ذق انك انت العزيز الكريم (٣٧ : ٦٣) أي أي النزلين خير مقاماً . أرياض الخلد ام شجرة الزقوم التي هي بلاء للظالمين . انها شجرة تخرج في أصل الجحيم أي انها تنشأ من التكبر والزهو هما جذر جهنم ليس الا . طلعها كأنه رؤوس الشياطين ومعنى الشيطان الهالك . وهو مشتق من الشيط والمقصود من الآية ان اكله مهلكة . ثم قال ان شجرة الزقوم طعام الذين يجترحون السيئات عمداً وانهما كالمهل أي النحاس الذائب يغلي في البطون كغلي الحميم ـ ذق انك انت العزيز الكريم وهذا الخطاب في غاية بالغة من الغضب ومحصله انك لولا أخذتك العزة والنخوة و بطرت الحق تكبراً وتشامخاً لما كنت لتذوق اليوم كل هذه المرارات هذا ومن المعنى البديع ما تحتويه الآية ذق انك

انت العزيز الكريم » من الاشارة الى ان لفظ الزقوم المركب من ذق وام ملخص من « ذق » وانك انت العزيز الكريم فأن الذال والزاي حرفان متقاربتا المزج متشابهتا الصوت وقد تتبدل الواحدة بالثانيـة من كثرة التداول والالف والميم في ام حرفان مختزلتان من انك انت العزيز الكريم

التجانس بين الاعمال وصور المجازاة

ولم يكن هـذا التجانس اللفظي الا للدلالة على التجانس المعنوي الواقع بين اعمال الانسان وبين صور المجازاة في عالم الدنيوية وخلاصة القول ان الله تعالى مثل كلمات الكفر بالزقوم لما بينهما من التلازم الروحاني وجعلها شجرة الجحيم كما انه سبحانه مثل كلمات الايمان بالجنة المثمرة وقد صرح في آيات متعددة من آي القرآن الكريم ان الفردوس والجحيم انما ينجم أصلها في الحياة الدنيا كما وصف سبحانه جهنم قائلاً انها : « نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة (١٠٣ : ٦) أي ان جهنم هي النار التي تشتعل بالمعاصي ومصدرها غضب الله وانها تغشي القلوب اولاً . يريد انها سعير الهموم والحسرات والاحزان والآلام التي

تعتلج في الفؤاد وذلك لان جميع انواع العـذاب الروحاني تبدو آثارها في القلب اولا ومن ثم يستولى على الجسد كله . وقال بمعناه في موضع آخر : وقودها الناس والحجارة (١ : ٢٢) اي ان الوقود الذي لا تنفك بسببه نار الجحيم مضطرمة اضطراماً دائماً شيئان اولهما البشر الذين نسوا الاله الحقيقي وأخذوا يعبدون ما سواه من المخلوقات او الذين تعبد المخلوقات بايعاءهم كما يقول الله تعالى عنهم : انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم (٣ : ٣٣) والثاني الاصنام والانصاب ـ فلولا هذه الاشياء لما وجدت السقر ـ والظاهر من جميع هذه النصوص ان الجنة والجحيم في فحواء كلام الله المقدس ليستا كهذا العالم الجسماني وانما مبدأهما امور روحانية ترى في عالم الآخرة متجسمة ولا تكون من العالم المادي

الوسيلة الموصلة الى معراج الروحانية الكاملة

نعود الآن الى مقصدنا الاصلي ونقول ان ما هدانا اليه القرآن المجيد من الوسائل الموصلة بالله الوصلة الروحانية الكاملة هي الاسلام والدعاء الفاتحة وتفصيل هذا الاجمال

أن يقف الانسان اولاً حياته كلها في سبيل الله ثم يشتغل في الدعاء المضمون في السورة الفاتحة ـ وهذا هو مغزى الاسلام كله ـ الا ان الاسلام والدعا الفاتحة هما الواسطة المثلى في الوصول الى الله والحصول على مورد النجاة الحقيقية بل وانهما الذريعة الوحيدة التي اقتضتها شريعة الفطرة وقررتها سنة الكون لارتقاء الانسان الأعلى ولوصاله الرباني ـ ولن يجد الله إلا اولئك الذين اقتحموا النار الروحانية بمقتضى مفهوم الاسلام وكانوا عاكفين على الدعاء الفاتحة

ما الاسلام ؟

انه نار المحبة المتوقدة التي تلتهم حياتنا السفلى وتحرق آلهتنا الباطلة ثم تقدم من أنفسنا ونفائسنا ومن كل عزيز لدينا قرباناً بين يدي الاله الحق القدوس ـ فهو هذا المعين السرمدي الذي نرد منهله ونرتشف منه الحياة الجديدة وفيه نرتبط بالله جميع قوانا الروحانية ربط الخيط بالخيط ويسطع من داخلنا شواظ نار كشواظ البرق فتنزل عليه نارٌ من فوق ومن امتزاج كلتي النارين تحترق شهواتنا

واهوائنا وتنطفي محبة الاغيار ونموت عن الحياة الاولى ـ فهذه الحالة تسمى الاسلام في اصطلاح القرآن المجيد

آثار الحياة الروحانية

الا انه بالاسلام يطرأ الموت على ميولنا النفسانية وانه بالدعاء نحيا الحياة الجديدة وهذه الحياة الثانية تستلزم نزول الوحي الرباني وهو نفس المقام الذي يعبر عنه باللقاء الالهي أي رؤية الله ومشاهدته ومتى ما بلغ الانسان هذه الدرجة من الاتصال بالله بحيث يراه بعينه يعطى قوة وتنار مشاعره وحواسه الباطنة كلها وتنطلق تجري فيه جاذبية الحياة المقدسة بكل شدة ـ فهنالك يصبح الله له عيناً يبصر بها واذناً يسمع بها ولساناً ينطق به ويداً يبطش بها وقدماً يمشي بها . الى هذه المرتبة تشير هاتان الآيتان : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » (١٠:٤٨) وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى (٨ : ١٢) وقصارى القول ان الانسان في المرتبة المذكورة يتحد بالله كمال الاتحاد وتسري في عروقه مشيئة الله ومرضاته وتشتد

كالجبال الراسيات قواه الاخلاقية التي كانت قبلما واهنة القوام ويتلطف العقل والادراك غاية اللطافة وهذا ما اريد به في الآية « وأيدهم بروح منه » (   ) في هذه الحالة يتدفق من جوانحه سيول المحبة والعشق ويجش صدره بجائشات الوجد والغرام بحيث يكون من الهيّن الميسور ان يحمل في الله أصنافاً مصنفة من العـذاب والخزي والهوان يرى غمرات الموت ثم يخوضها بحبور وابتهاج كانه أيسر من قصف فلقة المحمود ويشعر من نفسه انه منجذب الى الله انجذاباً مطرداً ولا يدري من يجزبه ان بدا غائبه تحمله وتسير به وان رضوان الله يسير لحياته مبدأ المبادىء أصل الاصول ويرى هذا الانسان ربه عندئذ جد قريب كما يقول سبحانه : « نحن اقرب اليه من حبل الوريد » (٥٠ : ١٥) ويكون هو كمثل شجرة انيعت ثمرتها فلا تلبث ان تتناثر من تلقائها . فكذلك الانسان الواصل تلك الدرجة تنحل جميع علائقه السفلى وتنعدم في لمحة واحدة ثم تزداد صلته بالله أشد تعمقاً ويبتعد عن المخلوق بعداً بعيداً

فآنئذ يتشرف الانسان بالخطاب ويحظى بلذة الكلام الرباني

وان هـذا المقام لا تزال ابوابه مفتوحة للوصول اليه كما السابق وان الله ما برح يسعف الطلاب بالنعيم المنشود من فضله كما كان في غابر الازمان ـ الا ان هذا الصراط لا يهتدي اليه الانسان بالاقاويل والترهات ولا يفتح هذاك الباب بالاباطيل والتفيهقات

كثيرون هم الطلاب ولكن قلّ واجد . فما السبب في ذلك يا هلترى ؟ اليس ان البلوغ الى المقام المذكور موقوف على الجهاد الاكبر والتضحية العظمى ؟ قولوا ما شئتم من القيل والقال فما القيل بمجدٍ شيئاً ولا القال بمغني فيه ـ الا ان الاقتحام في النار بصدق وثبات لاول شرط من شروط هذا السلوك وهو هذا الذي يفر الناس من خوفه . كلا . ما التفيهق بشيء ان لم يكن هنالك السعي الحثيث مع الجد والحماس . يقول الله تعالى في كتابه العزيز: « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » (٢: ١٨٢)

ما هي حالة الانسان بعد الموت ؟

حقيقة عالم المعاد

أقول في جواب السؤال المذكور ان حالة الانسان فيما بعد الموت ليست في الحقيقة شيئاً جديداً بل هي انما حياته الدنيوية نفسها ـ التي تكون قد انكشفت يومئذ بجلاء مزيد . ان كيفيات العقائد والاعمال ـ صالحة كانت ام غير صالحة ـ تكون كامنة في باطن الانسان ما دام في هذا العالم وهي تبعث في تكوينه تأثيراً خفياً ملائماً لماهياتها ـ ناجعاً او سامّاً ـ واما في العالم الاخروي فلا يظل الامر على ما هو عليه بل يبرح عنه الخفا كله وتنجلي تلك الكيفيات المستترة جميعها انجلاءً مشهوداً نجد مثاله في عالم الرؤيا فانه كما تكون نوعية المواد الغالبة في الجسم كمثلها تتراءى الكفيات في المنام أشباحاً مشخصة ، مثلا كثيراً ما يرى المحموم النار وشعلها ويرى المذكوم او الذي تأخذه الحميات النافضة انه في الماء قبل أن يصاب

احدهما بالحمى او الزكام وهكذا كما يكون الجسم مستعداً للاعراض ترى الاعراض في عالم المنام متمثلة حسب ذلك الاستعداد ـ فعليه يمكن لكل أحد اذا تدبر في ما يحدث في رؤياه ـ ان يفهم سنة الله في عالم المعاد ، فانه كما يحدث المنام فينا تغيراً مخصوصاً ويرينا الحالة الروحية مجسمة كذلك يكون الامر يوم الآخرة فيتشخص ما عملناه ونتائجه في صور محسوسة ويلوح على وجوهنا كل ما نكون قد استصحبناه من ههنا خفياً ـ ويوقن الانسان حينئذ يقيناً لا تشوبه شائبة الوهم ان ما يراها هي الحقائق ـ لا التمثلات الذهنية ـ كما يوقنه النائم فيما يراه من الاحلام ولا يتوهم قطعاً بانها التمثلات ـ « بل يظهر الله قدرته وشأنه العجيب يومئذ بواسطة عالم التمثلات » ـ وبما انه سبحانه وتعالى هو القدرة الكاملة لذلك فان قلنا انها خلق جديد بدت في عالم الوجود بكمال قدرته وما سميناها بالتمثلات كان هذا القول هو الاصح والاصدق والحق الواقع ـ يقول سبحانه وتعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من

قرة أعين » ـ (٣٢ : ١٢) يعني لا يدري أحد ماهية النعيم الذي أخفي للنفس السعيدة في العالم الآخرة

عالم المثـال

وصف الله جميع النعمات التي ليس لها شبيه بين النعم الدنيوية بكونها مخفية عنا والظاهر ان نعيم الحياة الدنيا غير مستور عنا فاننا نعرف اللبن والرمان والزيتون والاعناب ونأكل منها دائماً . لذلك فقد تبين من الوصف المذكور ان موجودات العالم الثاني هي غير ما في هـذا العالم وليس لها بالحقيقة الاشتراك الاسمي مع هذه الاشياء . فمن يظن ان الجنة الموعودة عبارة عن موجودات هـذه الدنيا فقد أخطأ ولم يفهم من القرآن المجيد حتى ولا حرفاً واحداً . يقول سـيدنا محمد صلى الله عليـه وسلم في شرح الآية المذكورة : « أعد الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . فلا يمكن ان يكون المراد به نعم الدنيا فاننا نراهـا باعيننا ونسمع عنها بآذاننا وتمر هي بخواطرنا ـ فما دام الله ورسوله ينشدان

نعيم الفردوس بكونه شيئاً بديعاً لا نظير له في الحياة الدنيا ، لا يحق لنا أن نتصور خلافه إذن نكون قد انحرفنا من الفرقان الحميد انحرافاً كبيراً انا لو ظننا ان في الجنة ايضاً كهذا اللبن ـ يحلب من الضأن والبقر والجواميس فكأنما فيها قطعان سارحات من حلوبة الانعام وكأن النحل تكون قد بنت هنالك في جزوع الاشجار عدداً عديداً من الاكوار والملائكة يبحثون عنها ويشتارون منها العسل ويصبونه في الانهار أرأيتكم هل من مناسبة بين هاتيك الخزعبلات وبين ذلك التعليم السامي الذي ينطوي على الآيات القائلة بان النعيم الاخروي ما رأته هذه العين قط ولا يدرك حقيقته التصور البشري قبل الموت وانه ينير النفس ويزيد في العرفان الرباني وانه غذاء الروح . هذا ومهما رسم من صورة ذلك النعيم على مثال المظاهر الجسمانية فانه قد نبه أيضاً معه الى ان منبعه ، هو الروح والاستقامة ـ لا غير

الوصف التمثيلي

وأما ما ورد في القرآن المجيـد من القول : وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً (٢ : ٢٣) فلا يتوهمن منه أحدٌ ان المراد بهذا الذي رزقنا من قبل هو النعمة الدنيوية المادية ـ كلا ـ انه للخطأ الفاحش هذا الزعم وانه مخالف لمنطوق الآية الصريح مغاير لمعناها البديهي ـ ليس هذا المراد بل انما المراد به ان الذين آمنوا وفعلوا الخير فانهم قد غرسوا بايديهم جنات ٍ أشجارها الايمان وأنهارها الاعمال الصالحات ـ سيجتنون من خباتهم هـذه ويكون جناها يومئذ ظاهراً واضحاً . وبما انهم يكونون قد أكلوا من ثمراتها قبلاً في دار الدنيا بصورة روحانية لذلك يعرفون تلك الثمرات في دار الآخرة من فورهم ويقولون هذا الذي رزقنا من قبل والحال انهم انما يجدونه مشابهاً له . فالآية المذكورة تقول صريحاً بان الذين كانوا في الحيـاة الدنيا

يتغذون بغذاء المحبة اللاّهية سيرزقون هذا الغذاء بعينه يوم الآخرة رزقاً مجسماً ولكن بما انهم يكونون قد ذاقوا لذة الحب والوداد وعرفوا كيفيتها ، لذلك تتذكر أرواحهم ساعة كانوا يرابطون في الزوايا والخلوات وفي حناديس الليل ـ يناجون محبوبهم الحقيقي بوجد وهيام ويتلذذون لذكره ـ كلا ان الآية المذكورة لا تعني الأغذية الجسمانية أصلاً

حقيقة الاخرة مكتومة عن الدنيا

وان يخطر بالبال انه ما دام العارفون كانوا رزقوا في دنياهم من الغذاء الروحاني وكانوا يعرفونه فكيف يصح القول بأن الغذاء الموصوف هو النعيم الذي لم يره ولا سمع عنه أحد ولا مر بقلب انسان فانه يستلزم وجود التناقص فيما بين الآيتين المذكورتين ـ فالجواب على هذا انه لا يوجد ثمت من تناقض مظنون اذ المراد به النعيم الروحاني الذي لا يمكن أبداً أن يدرك بهذي العين والاذن والقلب ؛ والتناقض انما يتحقق اذ يكون المقصود

نعيم الدنيا الذي نراه ونشعر به بحواسنا الظاهرة ـ ان كل ما يتلقاه العارف بطريق العرفان الرباني هو في الحقيقة من قبيل النعيم الاخروي ـ يوهب له منه شيء ههنا ترغيباً وتشويقاً فيه ـ اعلموا ان الانسان الرباني ليس من هذه الدنيا ، فلذا تمقته الدنيا ولكنه من السماء ، فلذلك يعطي النعمة السماوية ـ ينال الانسان الدنياوي سعادة الدنيا واما الانسان السماوي فيظفر بالسعادة السماوية ـ فالحق كل الحق ان النعيم السماوي كتم عن الدنيا كل تكتيم ـ عن أسماعها وأبصارها وقلوبها ـ ولكن الذي عفا الموت حياته وقد سقي بالطريقة الروحانية الكأس التي يسقاها فيما بعد ظاهراً بالصورة الجسمانية ، سيتذكر سقيه الاول عند السقيا الثانية ـ نعم سيتذكر ويعلم بالحق ان باصرة الدنيا وسامعتها كانتا في غفلة من ذلك النعيم ـ وبما انه كان في الدنيا وان كان لم يكن منها ، فهو أيضاً يشهد ان جنة النعيم الاخروي ليست من نعمات الدنيا في شيء وانها لم ترها العين ولا سمعتها الاذن ولا خطرت بالجنان ما دام في

الدنيا ولكنه في الحياة الآخرة شاهد مظاهرها التي لم تكن من الدنيا وانما كانت في الدنيا لبشارات عما في الحياة القادمة وكان لها بهذه فقط نسبة وارتباط ولم يكن لها بالدنيا من علاقة ـ هذا ومما حريٌّ بالذكر كالقاعدة الكلية هو ان القرآن المجيد وصف الشؤون المتطورة ما بعد الموت بثلاثة أطوار وهي معارف ثلاث عن عالم المعاد اختص بتوضيحها القرآن المجيد وحده وها نحن مفصلون كل واحدة منها على حدة فيما يأتي :

﴿ النكتة الاولى ﴾

يقول الكتاب الحكيم مرة بعد أخرى ان عالم الآخرة ليس شيئاً جديداً بل انما جميع ظواهرها تكون آثار هذه الحياة وظلالها كما يقول في الآية :

صحيفة الاعمال وماهيتها

وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً (١٥ : ٢٠) أي انه سبحانه

وتعالى قلد كل ابن آدم تباعه عملة وانه سيظهر له آثاره المخفية ويريه اياها يوم القيامة في شكل كتاب مفتوح مبسوط . وان كلمة الطائر الواردة في الآية المذكورة معناها في أصل الوضع كل ذي جناح وقد يستعار بمعنى العمل أيضاً وذلك لان العمل ـ خيراً كان او شراً ـ يطير بعد وقوعه كمثل الطير وتنعدم معونته او لذته بعد قليل ثم يخلق من القلب منه أثر كثيف او لطيف ـ انه أصل من أصول الفرقان الحميد ان العمل دائماً ينقش نقوشه جفية في نفس العامل وانه كما يكون عمل الانسان بحسبه يقضي الله أمراً منه مناسباً لاقتضاء الحال فلا يدع أمره الصادر ذلك العمل أن يذهب ضياعاً بل ترسم حالاً آثاره ـ كيفما كانت ـ في القلوب والآذان والعيون وعلى الوجوه والايدي والارجل وان هذه الرسوم هي صحيفة الاعمال المكتومة التي تنكشف ظاهراً في الحياة الثانية ويلقاها الانسان كتاباً منشوراً . ويخبر سبحانه وتعالي عن أهل الجنة في موضع آخر بقوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم

بين أيديهم وبايمانهم » (٥٧ : ١٢) أي ان نور ايمانهم الحاصل اليوم بالغيب يرى يوم الآخرة رأي العين ساعياً بين أيديهم وبايمانهم ـ وفي موضع آخر يخاطب سبحانه وتعالى الفجار بقوله : « الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف . كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم (السورة ٢ ـ ١) أي انه قد شغلكم عن ابتغاء الحياة الابدية حب الاستكثار من متاع الحياة الدنيا ولم تزالوا به حتى وافتكم المنون واراكم التراب فاياكم وهوى الدنيا فانه لا خير في هواها . اياكم ثم اياكم فان هوى الدنيا ما هو بخير . لو انكم علمتم علم اليقين لرأيتم الجحيم في حياتكم هذه ـ على انكم بعد حين ترونها رأي اليقين في عالم البرزخ ثم انكم يوم النشور تعلمونها حق اليقين ـ لا بالمشاهدة فقط ـ بل بالحال الواقع اذ تؤاخذون شد التأخذ ويغشاكم العذاب كاملاً لقد اخبر الله تعالى في الايات ان الحيواة الجهنمية

لمكتمنة للفجار في دنياهم هـذه فلو انهم فـكروا لابصروها ههنا وقد قسم سبحانه العلم مراتب ثلاثا اي علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ولان يفهم هـذه المراتب بسهولة عامة الناس ايضاً أضرب لهم مثل انسان يرى من بعـد دخاناً كثيفا فينتقل ذهنه من الدخان المتصاعد الى النار المستعر ويستيقن وجودها هنالك قياساً على ما يوجد بينهما من تلازم تام وعلاقة غير منفكة فانه لا بد ان تكون النار حيث الدخان موجود ـ فالعلم الحاصل من هذا الاستدلال المنطقي هو علم اليقين ـ وان آنس من وراءه شهـابا قبسا ، كان العلم الحاصل بالرؤية عين اليقين واذا اصلى نفسه في النار كان علمه بها اذا حق اليقين ـ فعليه يقول الله تعالى ان الجحيم يمكن للانسان ان يعلم عنها علم اليقين في هذه الدنيـا كما انه سيعلمها عين اليقين في عالم البرزخ وحق اليقين في عالم المحشر

هذا ولمزيد الايضاح اقول ان القرآن الحميد يخبرنا بوجود ثلاثة عوالم

العوام الثلاثة الدنيا ـ البرزخ ـ الاخرة

العالم الاول هـذه الدنيا التي تسمى دار الـكسب والنشاة الاولى ـ حيث يكتسب الانسان الخير والشر ـ نعم ان للتقاة في عالم البعث مجالا للرقى الا ان ذلك الرقي سيتيسر له بالموهبة الرحمانية محضاً ولا دخل هنالك للكسب اصلا ـ والعالم الثاني البرزخ ومعناه في اللسان العربي ما حجز بين الشيئين وقد سمي العالم الثانى البرزخ لوقوعه بين النشاة الاولى وبين عالم النشور ـ لذلك فالاسم المذكور يضمر شهادة صامتة على وجود العالم المتوسط ـ وقد اثبتنا في كتابنا منن الرحمان ان الكلمات العربية كلمات الله التي فاضت من بين شفتيه سبحانه وتعالى وان اللسان العربي هو وحده كلام الله القدوس من دون سواه من اللغات وانه القديم ومبدء جميع العلوم وام الألسنة كلها وانه العرش الاول والعرش الآخر للوحي الرباني ـ اما كونه العرش

الاول للوحي الرباني فلانه كان كله كلام الله الذي لم يزل منذ القديم مع الله ثم نزل في العالم واتخذ منه العالم لغاته ـ وأما كونه عرشه الأخير فلانه نزل به كتاب الله الخاتم القرآن المجيد ـ فالبرزخ كلمة من كلمات هـذا اللسان العربي المبين وهو مركب من « زخ » و « بر » وكان معناه انه انسد طريق كسب الاعمال وبات في حالة الخفاء

طور البرزخ

ان طور البرزخ هو الطور الذي ينحل فيه هـذا التركيب العالي وينفصل الروح والجسم الواحد عن الآخر يلقى هذا في حفرة وينسل ذاك الى نوع من حفرة اخرى كما يدل عليه معنى البرزخ وكما هو مشهود رأي العين ـ وذلك لان الروح وحدها لا تقدر على فعل الخير والشر الذي كان بمقدورها قبلا لسبب اتصالهـا بالجسم . ومن الظاهر ايضاً ان صحة روحنا موقوفة على صحة البدن ، فانه تغيب القوة المحافظة باصابة واحدة في قسم معين من أقسام الدماغ وباصابة أخرى في قسم آخر منه تذهب

المفكرة ويتلاشى الشعور والعقل كلاهما ولئن أصيب الدماغ الآن بنوع من انواع التشنج أو الورم أو يتجمع فيه الدم أو يترسبا فيه مادة من المواد الفاسدة التي تولد الغدة أو المدة اصاب الانسان في الفور الاغماء أو السكتة أو الفالج ـ لقد تعلمنا مشاهداتنا المستمرة وتجاربنا المتكررة ان روحنا عطل محض بغير الجسم وانه باطل بحت زعمنا ان الروح ستحظى بالسعادة يوماً ما مجردة عن الجسم ـ نعم يمكن أن نقبل هذا المزعوم لقصة خرافية الا انه لا يؤيده برهاناً معقول ـ لا نستطيع ان نتصور ابداً ان كيف تبقى الروح على حالتها الكاملة اذ تحرم بتاباً من العلائق الجسمانية وهي ـ على ما نعلم عنها ـ تقعد متعطلة عند كل أدنى خلل يطرأها ـ انما توضح لنا بحرية كل يوم ان صحة الجسم ضرورية لصحة الروح وان الانسان اذا اجلخ في جسمه اهتز معا في روحه واختلس منه سارق الشيخوخة بضاعته العلمية كما يقول الله تعالى يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً (٢٢ : ٥) ـ لذلك

فالمشاهدة دليل قاطع بان الروح من دون الجسم لا شيء

الدلالة العقلية

ثم ان الامر الذي يرشد الانسان الى هـذه الحقيقة الناصعة هو انه لوكانت الروح تستطيع القيام بذاتها مستقلة عن الجسم ، فما كان الله ليربطها بالجسم اعتباطاً من دون داعية الحاجة والا كان فعله هذا عبثاً ـ وايضاً ممـا جدير بالنظر هو أن الله خلق البشر للارتقاء غير المتناهي . فلما لم يستطيع الانسان أن يحرز رقي هذه الحياة القصيرة بغير معونة الجسم فكيف يتصور انه سيتمكن من تلك الترقيات التي لا نهاية لها بغير رفاقة الجسم . ان يتبين من هذه الادلة كلها إلا انه من اجل ان تصدر من الروح وظائفها بأكملها لا بد لها من دوام مصاحبة الجسم وَفقاً للتعليم الاسلامي . اجل ان الروح ليفارقها هذا الجسم الفاني عند الموت ولكنها تعاد جسماً آخر في عالم البرزخ لتذوق به اعمالهـا بعض الذائقة ولا يكون هذاك الجسم من نوع هـذه الاجسام وانما هو ظلمة أو نور يتكيف طبقاً لصور الاعمال فكأن

حالات الانسان العملية تقوم مقام الاجسام في العالم المقبل. هكذا المذكور في كلام الله مراراً وتكراراً وهكذا قيل غن بعض الاجسام انها نورانية وعن البعض الآخر انها ظلمانية . تتهيأ هذه من ظلمة الاعمال وتلك من نور الاعمال

المشاهدة الذاتية

ان هذا السر وان كان في غاية الغموض فانه ليس مما يعقل

لقد يستطيع الانسان الكامل ان يتلقى كياناً نورانياً عدا هذا الكيان الجثماني ولنا في عالم المكاشفات امثلة كثيرة من هذا التجسد العملي ولئن كان من الصعب ايضاح هذا الامر للبليد القاصر طرفه عند المدركات المحسوسة ولكن سوف لا يراه بنظر الاستبعاد والتعجب بل يتلذّذ بذكره من اسعدته العناية الربانية بحظ من عالم الكشف . والحاصل أن هذا الجسم الذي يتكون من الكيفيات العملية هو الذي يصير واسطة لمجازاة الصالح والفاجر في عالم البرزخ واني لفي ذلك صاحب التجربة

والمشاهدة . لقد اتفق لي ذات المرار أنني لقيت الموتى كشفاً حالة الانتباه الكامل ورأيت بعض الفاسقين والضالين كان بدنهم مسوداً غاية الاسوداد كأنه خلق من الدخان لانني بنفسي عارف هذا الطريق الروحاني لذلك أقول عن وثوق انه لا محالة يعطي كل انسان جسما بعد موته كما قال الله تعالى ـ سواء أكان ذلك الجسم نورانياً أم ظلمانيا ـ يكون خطأ أن لو أراد الانسان تحقيق هذه المعارف الدقيقة بالعقل المجرد ، فانه كما لا يمكن للباصرة أن تخبر عن ذائقة الحلو وللسامعة أن ترى الاشياء كذلك لا يمكن للعقل وحده أن يحل عقدة تلك العلوم المادية التي لا تحصل الا بفضل المكاشفات المقدسة ـ ان الله تعالى جعل لاكتناه المجهولات المختلفة وسائل مختلفة ، لذلك فالتمسوا كل شيء من بابه تجدوه من هنالك

الموت والحياة الاخرويتان

ومما هو حرى بالذكر ههنا هو أن الله تعالى قد سمى في كلامه الغواة الفجار باسم الموتى والابرار الاحياء . والسر

في هذه التسمية هو أن الذين يموتون غافلين عن الله تعالى فقد تقطع بهم أسباب المعيشة من الاكل والشرب واتباع الشهوات وليس لهم ثمت من نصيب من الغذاء الروحاني فهم لذلك ما توافى حقيقة الامر ولا يعودون يحيون الا ليذوقوا العذاب ـ فالى هذا السر أشار الله تعالى في قوله : ومن يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحي (٢٠ : ٧٦) وأما أولياء الله فهم لا يموتون بهذا الموت لان معهم خبزهم وماءهم

عالم البعث

ثم بعد البرزخ طور آخر يسمى عالم البعث ، تتلقى فيه كل روح جسما محسوساً ـ صالحة كانت تلك الروح أم طالحة وقد قدر يوم هذاك المحشر للتجليات الربانية الكاملة التي بفضلها يعرف كل انسان ربه حق العرفان ويبلغ الكل منتهى النقطة من جزاءه . الا لا يستغربن أن كيف يستطيع الله اياه !! انه مالك القدرة كله ـ يفعل ما يريد . يقول سبحانه وتعالى : أو لم ير الانسان انا خلقناه من

نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون (٣٦ : ٧٧ ـ ٨٣) ولباب القول أن لا شيء مستحيل عند الله . فالذي خلق الانسان من نطفة حقيرة ، لا يعجز عن خلقه مرة ثانية

قيام الساعة

ربما قال الذين لا يعلمون ترون أنه مادام العالم الثالث أي عالم النشور يتمثل بعد زمن طويل ، فكأن عالم البرزخ اذاً بمثابة سجن يعتقل فيه الصالح والفاسق طول تلك المدة الامر الذي فيما يظهر عبث محض فالجواب على هذا أن الاستنباط المذكور خطأ كله . وليس منشأه الا الجهل

البحث بالتعليم الاسلامي ! فان كتاب الله يدلنا على مقامين لدينونة البر والفاجر أحدهما عالم البرزخ الذي يلاقي فيه كل انسان جزاءه مخفياً . ان الاشرار بعد الموت معاً يسلكون الجحيم وأن الاخيار كذلك بعد الموت معاً يلتقون روحاً وريحاناً في جنة المأوى . ولقد توجد في القرآن المجيد كثير من الآيات يظهر منها أن كل انسان يرى معاً بعد الموت جزاء أعماله — كما — يخبر الله سبحانه وتعالى عن رجل من أهل الجنة بقوله : قيل ادخل الجنة (٣٦ : ٢٥) ويحكى عن آخر من أصحاب النار بقوله : فرآه في سواء الجحيم (٣٧ : ٥٣) أي أنه كان لرجل من أصحاب الجنة قرين فلما ماتا ، افتقد الجنتي صاحبه حيران فارى اياه هنالك في قعر جهنم . بناء عليه فالدينونة تبتدء حالا بعد مفارقة الانسان هذه الدار ويدخل أصحاب النار النار وأصحاب الجنة الجنة . الا أن هناك يوماً آخر بعده اقتضت حكمة الله البالغة أن يظهر فيه بتجلي أعظم ، لانه انما خلق الانسان ليعرف بخالقيته ثم بعد ذلك يهلكهم اجمعين ليعرف بقهاريته ثم

يحييهم حيواة كاملة ويحشرهم في ميدان واحد ليعرف سبحانه بقدرته الكاملة . ان هذه هي النكتة الاولى من النكات الثلاث المشار اليها. ذكرناها الى الآن

نكتة المعرفة الثانية

تمثل الاعمال

وأما نكتة المعرفة الثانية التي ذكرها الفرقان الحميد تبياناً لظواهر الحياة الآخرة هي أن جميع الامور التي تكون في الحياة الدنيا روحانية ستتمثل في عالم المعاد مجسمة ـ لا فرق في ذلك اكان عالم المعاد في طور البرزخ أم في طور البعث والنشور يقول الله تعالى في كتابه العزيز في هذا التكيّف : من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (   ) والمراد أن العماية الروحانية التي يصاب بها الانسان الفاجر في الحياة الدنيا تتجسم في عالم المعاد محسوسة بشهوة . ويقول سبحانه وتعالى في موضع آخر : خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها

سبعون ذراعاً فاسلكوه (٦٩ : ٣٠) تؤذن الآية أن عذاب الدنيا الروحاني يتشبح في عالم المعاد مجسما . فطوق الشهوات الدنياوية الذي ينوء برقبة الانسان وينكس رأسه الى الارض مستترا أى في صورة غل مطوق به . والشواغل الدنياوية ستظهر في صورة سلاسل وانياد شدت في الارجل ولوعات الاماني وحزازات الحسرات ترى يومئذ النار الملتهبة رؤيا العين الا ان الانسان الفاسق في حياته الدنيا ليحمل في جوفه جحيما من الشهوات والاهواء ويشعر في نفسه بلغاتها اللذاعة عند الخيبة والخسران . لذلك فانه متى يقذف بعيداً عن شهواته الفانية ويغشاه القنوط الابدي يكشف الله له تلك الاماني والحسرات في صورة نار مجسمة ويحول بينه وبين ما كان يشتهيه من دنياه كما يقول سبحانه وتعالى في معناه : —

وحيل بينهم وبين ما يشتهون . (٣٤ : ٥٣) فهو هذا الفراق اصل عذابهم . ليس الا . وأما قوله تعالى : ثم في سلسله ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه فانما هو . اشارة

الى معدل العمر البشري الذي يعمره الفاسق الشقي احيانا كثيرة ثم يضيعه في مشاغل الحياة الدنيا . بل وكم يكون انه يصادف من الحياة الطيبة سبعين عاماً خالصاً صافياً عدا ايام الصبا والشيخوخة ويتاح له في غضونه ان يتصرف فيها بالعقل والحزم والجد والاجتهاد ولكنه وياالشقوة يخسر تلك الفرص الثمينة في الفسق والفجور ولا يكاد يصحو من غفوته . لذلك يقول الله تعالى ان السين السبعين التي قضاها في لهو العيش في دنياه سوف تتمثل يوم المعاد في سلسلة زرعها سبعون ذراعاً كل ذراع بازاء سنة من سني حياته تمثل الحالات النفسية

ولا تنشوا فيما يتعلق بشئون المجازاة . ان الله تعالى لا يصب على الانسان مصيبة ماجزا فامن تلقاءه وانما يعرض عليه عرضاً ما اجترحته نفسه من السيئات . ناهيكم خطابة للفجار تبياناً لسنته هذه : انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب . (   )

ان المقصود بالشعب الثلاث الاقسام الثلاثة من القوى

النفسانية القوى السبعية من قبيل الشهوات والنزعات الطبيعية الحادة والقوى البهيمية من مثل العواطف والاميال الهادئة والقوى الواهمة مثل الآمال والاماني فالذين لا يعدلون هذه القوى ولا يصبغونها بالصبغة الاخلاقية ، يبرز الله اياها يوم المعاد كأنها ثلاثة فروع قائمة بلا ورق غير واقية من لظى الجحيم . وكذلك اظهاراً لسنته المذكورة يقول سبحانه وتعالى في اصحاب الجنة : يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم (٥٧ : ١٢) . ويقول : يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، (٣ : ١٠٢) ويقول : مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير اسنٍ وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى (٥٧ : ١٦) بين الله تعالى في هذه الآيات ان الجنة الموعودة هي — على الوجه التمثيلي — عبارة عن انهار من الاشياء المذكورة لا حدّ لها . فيها انهار ظاهرة من سلسال الحياة الذي يشربه

العارف اليوم في حياته الدنيا تشرابا روحانياً وفيها انهار منظورة جهراً من اللبن الروحاني الذي يتغذى به اليوم في نشأته الاولى تغذياً روحانياً كالطفل الرضيع وفيها انهار من سلاف المحبة الالهيـة التي كان لا يصحو من نشوتها طرفة عين في دنياه بصورة روحانية ، يراها يومئـذ قبلاً رأي العين . وفيها انهار محسوسة مرئية عياناً من شهد الحلاوة الايمانية الذي كان قبلاً في دنياه يجد رضابه في فمه حلواً لذيذاً على كيفية روحانية وفيها كل شيء من النعيم الابدي بكثرة يجده العارف حاضراً مشهوداً شهادة العين وسيعلم مبلغ روحانيته بمقياس جناته وانهاره ويريه عرياً غير مستور . وكذلك يبرز الله يومئذ لاصحاب الجنة من حجب الغيب ويتجلى لهم كشافاً

فالحاصل انه لا تبقى الحالات الروحانية على ما هي عليه اليوم من الخفاء بل تظهر وتتراءى في اشكال مجسمة في عالم المعاد

نكتة المعرفة الثالثة

الارتقاء غير المتناهي

النكتة الثالثة هي ان سلسلة الارتقاء في عالم المعاد غير متناهية . يقول الله تعالى : والذين آمنوا معهم نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير ؛ (٦٦ : ٨) . فقوله سبحانه وتعالى انهم لا ينفكون يدعون ربهم دائماً ابداً ان يتم لهم نورهم انما هو الاشارة الى الترقيات الغير المتناهية ومعناه انهم كلما استكملوا درجة معينة من درجات النور ، رفعت لهم درجة ثانية منه فيرون كمالهم الحاصل نقصاً بالنسبة الى الكمال المتمثل ويلتمسون اياه فاذا احرزوه ؛ تشخصت لهم درجة ثالثة منه فاذا هم يزدرون الكمالات الاولى باجمعها ويطمعون في هذا الاخير . فهو هذا النزوع للرقي الابدي الذي مفهوم الدعاء ربنا أتمم لنا نورنا الخ

وخلاصة القول انه هكذا ستمتد على الطول سلسلة

الارتقاء تترى بلا انقطاع ـ لن يكون معه تنزل ابداً ولا هم من جنتهم يوماً يخرجون بل وكل يوم يتقدمون الى الامام ولا يتقهقرون

معنى الاستغفار وفلسفته

وللقائل ان يعترض ههنا ما الحاجة يا ترى الى الاستغفار بعد الغفران وأي ثلب بقي تداركه بعد دخولهم الجنة ؟!

فالجواب هو ان المغفرة معناها في الاصل تخفيض الحالات الناقصة غير الملائمة وتغطيتها فعليه كان المراد بقوله تعالى انه سيطمع اصحاب الجنة ان يستوفوا الكمال كل الاستيفاء ويضمحلوا في النور بكليتهم . انهم يرون الحالة ناقصة عند رؤيتهم الحالة الثانية فيودون الانسلاخ منها ثم كذلك اذا رأوا الكمال الثالث تمنوا غفران الحالة الثانية اي تخفيضها وتكتيمها وهكذا يظل اصحاب الجنة يتمنون للمغفرة غير المتناهية

ان كلمة الاستغفار والغفران هذه هي تلك الكلمة

نفسها وعيبها التي من جرائها طعن الجاهلون في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد علمتم ان توقان النفس الى الاستغفار انما هو بالحري فخر الانسان ولا العار فمن كان مولوداً من بطن امرأة ثم لا يتخذ الاستغفار ديدنا على كل حال فانه دود لا بشر . وانه لاعمى ولا بصير ، وجنس خبيث غير طيب

وجماع القول ان الجنة والجحيم باعتبار تعاليم الفرقان الحميد ليستا شيئاً جسمانياً جديداً يأتي من الخارج وانما هما في الحقيقة آثار الحياة البشرية وظلالها . اجل حق ان كلتيهما ستتمثل مجسمة ولكنها لا تكون في نفس الامر الا آثار الحالات الروحانية واظلالها لا غير . كلا لسنا القائلين بالجنة الغناء بلفيف من الاشجار المغروسة في بقعة من الارض غرساً جسمانياً ولا نحن المعتقدين بجحيم وقودها احجار من كبريت حقاً واقعاً . بل ان الجنة والجحيم ـ طبقاً للمعتقد الاسلامي ـ انعكاسات هذه الاعمال التي يعملها الانسان اليوم في الحياة الدنيا

السؤال الثالث

غاية الحياة البشرية والمثل الاعلى

ما غاية الحياة في الدنيا وكيف الحصول عليها ؟ وها كم جوابه فيما يلي : ـ

لقد اختلف بنو آدم فيما بينهم في تعيين مقصد الحياة البشرية تبعاً لاختلاف طبائعهم ـ وجعل كل منهم مقصداً لحياته متبانياً ولا يتجاوز في ذلك ما وراء الاغراض الدنيوية والاماني السفلية ـ على أن الغاية التي نشدها الله تعالي في كتابه العزيز هي ما يتضمنه قوله : وما خلقت الجن والانس الا ليعبـدون ـ (٥١ : ٥٦) أي ليعرفوني ويؤلهوني . بناء عليه كان مقصد الحياة البشرية عبادة الله ومعرفته وان يصير الانسان لله

صلاحية تقدير العناية

من البين الاظهر انه لا يحق للانسان ان يقرر غاية حياته خيرة من تلقاء نفسه فانه ما يجيء هذا العالم بارادته

ولا هو تاركه بمرضاته ـ ان هو الا مخلوق والذي خلقه وخصه من بين جميع الحيوانات بأفضل الملكات فانه كذلك قدر لحياته غاية مخصوصة ـ الا وهي بدون الريب والشك عبادته ومعرفته والفناء في ذاته . انها لهي الغاية الجلي وحدها سواء أفهم الانسان اياها ام لم يفهم . يقول الله تعالى في كتابه المجيد :

الفطرة البشرية والاسلام

ان الدين عند الله الاسلام (٣ : ١٧) فطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم (٣٠ : ٢٩) اي ان الدين الذي يكفل المعرفة الربانيـة بأتم المعنى والذي يهدي الى المناسك الالهية باحسن طريق هو الاسلام وان الاسلام أودع فطرة الانسان وان الله انشأ الانسان على نشأة الاسلام ومن أجل الاسلام خلقه ـ بمعنى انه قد أراد له ان يشتغل في عبادة ربه واطاعته ومحبته يكمل قوله ـ ولاجل ذلك وهب له من الملـكات جميع ما يناسب مقتضى الاسلام

مقتضى الفطرة البشرية

ان شرح الآيات المذكورة طويل جداً وقد ذكرنا سابقاً طرفاً منه في الجزء الثالث من السؤال الاول ولا يسع هذا المقام البتة ان نسهب في موضوعها ـ غير اننا نريد ان نبين بالاختصار التام ما يلزمه منه لا محالة ونقول ان كل ما أوتيه الانسان من الغرائز والجوارح باطناً وظاهراً فالمقصود منه في حقيقة الامر معرفة الله وعبادته ومحبته . لذلك فالانسان لا يجد من دون الله السلوان الحق في شيء من الاشياء ـ لا يجده البتة مهماً اختار لنفسه من دنياه ألوفاً مولفة من الشواغل والتلاهي ـ نعم ليكن ما شاء ان يكون غنياً مثرياً وتاجراً كبيراً او ذا منصب فخيم او صاحب عرش عظيم او فيلسوفاً نحريراً ـ ليكن ما شاء ان يكون فانه لا محالة مغادر كل هذه المشاغل بالحسرات الكبيرة بل لا يفتأ القلب يؤنبه ويلدعه دوماً على انهماكه في لهو الحياة الدنيا ولا يشايعه الوجدان أبداً في مكره وحيله ومكايده وسيئاته

الطريق الامثل في تقدير الغاية الكمالية ومعيارها الصحيح

ثم ان العاقل يمكنه ان يفهم هذا الامر بطريق آخر وهو ان غاية كل مخلوق من خلقه هي ذلك العمل الاعلى الذي يستطيعه هو على قصاري جهده ويعمله بأحسن ما يمكن له ان يعمله بحيث اذا فعله وقف عنده وعجزت قواه ان تزيد عليه. خذوا الثور مثلاً فاعلى ما يتأتى منه من عمل هو الحراثة او السقى والحمل ولا نعلم اكثر من هذه الفوائد المتأتية من قواه. لذلك فهي هذه المرافق الثلاثة غاية وجوده ولا توجد فيه غير هذه القوى المناسبة للوظائف المذكورة. وأما اذا بحثنا في ملكات الانسان واستطلعنا أعلى قوة أوتيها علمنا انها التحري للإله العلي. ان هذه الغريزة لمستحوذة عليه غاية الاستحواذ حتى انه ليود ان يباع في محبته ويتلاشى له من كل الوجوه بحيث لا يبقى شيء منه بل يصير كله لله العظيم. ولقد شاركه الحيوان في مأكله ومنامه باكثر نصيب بل وسبقه بعض الحيوان كثيراً في الصنعة البديعة. ها هو النحل يصنع

لنا من صبيب الزهر عسلاً نفيساً مما لم ينجح الانسان في صنع مثله حتى اليوم. لذلك فالظاهر ان الغاية الكمالية للانسان انما هي الوصال الالهي وان المثل الاعلى لحياته ان لا يزال قلبه مفتوح النافذة اتجاه الله. وان يسئل اني يتسنى الحصول على هذا المقصود الاعلى وما هي الوسائل التي يمكن ان يدرك بها الانسان هذه البغية المثلى ؟

﴿ الوسيلة الاولى ﴾

العرفان الصحيح والايمان الخالص

فاعلموا ان العرفان الصحيح والايمان الخالص بالله الحق هما الشرط الاول والوسيلة الاولى للبلوغ الى الغاية المذكورة. فلو ان الانسان اخطأ اول خطوة يمشيها في سبيلها وجعل يعبد الطير والبهيم والعناصر الكونية او اتخذ ولد الانسان الهاً يحبه كحب الله فلو انه كبا لاول قدم يرفعه ، أرأيتم ماذا يرجى منه بعدئذ في خطواته التالية اهل يسير الصراط السوى يا ترى ؟ ان الاله الحق ليسعد

طلابه وأما الميت فاني له ان يساعد الميت ولقد ضرب الله لهم مثلاً في هذا المعنى واعجب به مثلاً . يقول سبحانه وتعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الاّ كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغيه وما دعاء الكافرين الا في ضلال (١٣ : ١٥) اي ان الاله القدير على كل شيء هو الاحق بان يعبد ويدعى عند الملمات وقضاء الحاجات وأما من يعبده الناس فهو لا يستطيعون جواباً ومثلهم من هؤلاء الآلهة كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ـ وما دعاء الجهلة الغفل من مولاهم الحق الا في ضياع

﴿ الوسيلة الثانية ﴾

الحسن

والوسيله الثانية لادراك الغاية الكمالية هى الوقوف على محاسن الله تعالى تلك المحاسن التي هو متصف بها باعتبار كماله الأتم ، فان الحسن بطبيعته قوة ساحرة تهوى

القلوب اليه منجذبة من تلقاءها وتبعث منها طبعاً عواطف الحب عند مشاهدته . ان حسن الله واحدانيته وعظمته وجلاله وصفاته . يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد (ـ ١١٢ ـ) . اي ان الله فرد في ذاته وصفاته وجلاله لا شريك له في ذلك أصلاً وان الجميع كل عليه تكلة محتاجون اليه وذرة ذرة من الكون تستفيض منه الحياة وانه مبدىء الكل ولا مبدء له ـ لا مولوداً عن والد ولا والداً لمولاد . أنى يكون ذلك وهو عديم المثال ليس كمثله شيء . لقد وصف القرآن العظيم الاله الحق بأكمل الصفات المتصورة مرة بعد اخرى ومثل عظمته في أساليب متنوعة حيناً بعد حين واستلفت الناس به الى ضالتهم المنشودة وقال ها هم انظروا هكذا الاله يكون رغيبة الفؤاد ولا كالاله الميت الضعيف قليل الرحمة قليل القدرة

﴿ الوسيلة الثالثة ﴾

الاحسان

وأما الوسيلة الثالثة التي هي مرقاة من مراق الدرجة الثانيـة للحصول على المقصود الحقيقي فهي الاطلاع على احسان الله تعالى . وذلك لان المحرك الطبيعي لعواطف الحب انما هو احـد الامرين الحسن والاحسان وقد تضمنت السورة الفاتحة خلاصـة الصفات الربانية التي مصدر الاحسان الكامل . يقول سبحانه وتعالى : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين . والظاهر ان الاحسان الكامل انما يتحقق ان لو كان الله يخلق عباده من العـدم المحض ثم كان لا يزال يشملهم بربو بيتـه على الدوام وكان لهم قوام الامر في جميع الشؤون ثم ان كانت رحمة قد ظهرت لهم على اختلاف مظاهرها وكان فضله عليهم عظيماً جداً لا يمكن ان يقدره احد . انه قد منّ الله تعالى علينا بمثل هذه الاحسانات ساعة بعد ساعة وقال :
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . . . (١٤ : ٣٧)

﴿ الوسيلة الرابعة ﴾

الدعا

والوسيلة الرابعة لنيل المنى الاصلي هي الدعاء . يقول سبحانه ، وتعالى : ادعوني استجب لكم . (٦٠ : ٦٢) وقد رغب الانسان في الدعاء بالتكرار المكرر لينال الانسان من قوة الله ولا من قوته

﴿ الوسيلة الخامسة ﴾

المجاهدة

والوسيلة الخامسة للفوز بالمرام الاصلي هي المجاهدة اي ان تطلب الله بواسطة انفاق الاموال في سبيله وان تطلبه بواسطة بذل القوى باستنفاد العقل والعلم بتضحية النفس في سبيله كما يقول سبحانه وتعالى : جاهدوا باموالكم وانفسكم (٩ : ٤١) ومما رزقناهم ينفقون . (٢ : ٢) والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (٢٩ : ٦٩) . ومعنى

الآيات ان ننفق في سبيل الله اموالنا ونفوسنا مع جميع ما لها من الملكات والقوى وما اكتسبناه من عقل وعلم وفهم وبراعة ـ يجب ان نجود في سبيله بكل شيء ذلك لان الذي يجاهد في الله بجميع الطرق يهتدي لسبله

﴿ الوسيلة السادسة ﴾

الاستقامة وشروطه

الوسيلة السادسة للنجاح بالمنية المرغوبة هي الاستقامة اي المثابرة والثبات في هذا السبيل لا يتعبن السالك ولا يتوانن ولا يقعدن منخذلاً ولا يتقاعسن خوف الامتحان يقول سبحانه وتعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة (٦١ : ٣٠) لا ريب ان الاستقامة فوق الكرامة وان كمال الأستقامة ان نرى البلوى قد احدق بنا من الجهات الاربع وان نجد انفسنا وأعراضنا مستهدفة للمخاطر في سبيل الله وليس هنالك من سلوان ينفس عنا روعة

الكرب بل وغادرنا الله كذلك في مهول المخاوف وأمسك عنا ـ على سبيل الامتحان ـ الكشف او الرؤيا او الوحي مما قد يسلي الانسان في مصيبته ـ وقد بتنى في حالة البؤس الشديد والخذلان العظيم ثم مع هذا كله لا نجبن ولا نفشل ولا نرجع القهقرى كالجبان ولا نثلم صفة الوفاء ثلمة ما ولا نخلّ بالصدق والثبات بشيء ـ بل وينبغي ان نفرح على الهوان ونرضى بالموت ولا ننتظر من صديق مؤازرة وتثبيتاً وحتى ان لا نرجو من الله البشارة في ذلك الوقت بأن الوقت خطراً جداً بل لننتصب مستقيماً على الضعف والخذلان وفقدان الطمأنينة كلها ونلق بجراننا قدماً ـ كائناً ماكان ـ ولا نتنفس مطلقاً ازاء القدر المحتوم ولا نبدأ أصلاً شيئاً من الجزع والفزع والقلق والاضطراب الى ان يتوفى الابتلاء حقه . فهذه هي الاستقامة التي بها يلاقي الانساز ربه وهذه هي نفس العبقرية التي لا تزال رؤياها حتى اليوم تتفاوح من تربة الرسل والانبياء والصديقين والشهداء واليها أشار الله تعالى

بقوله : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم او بقوله (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين (٧ : ١٢٣) واعلموا ان الله ينزل نوراً على قلوب اولياءه المحبوبين حين اشتداد الكوارث والأزمات فاذا هم يتقون به ويقاومون الحدثان بكل تودءة واطمئنان بل ومن التلذذ الايماني يلثمون السلاسل التي شدت في أرجلهم من أجل محبوبه . ان الانسان الرباني لا يقوم يخاصم ربّه متعنتا يسئله النجاة حين النوازل وحين يهوله الموت ، لان اللجاج في دعوة العافية والمعافاة في ذلك الحين هو الحرب على الله ومما ينافي الوفاق التام مع مشيئته سبحانه وتعالى . الا ان المحب الصادق كلما ألمت به البلوى يعفي القُدُم ويزدري هذه النفس ويودع حب الذات توديعا ويصير رهيناً لمرضاة مولاه الحق ولا يبتغي الا وجهه . فهو هذا الانسان الذي يقول فيه سبحانه وتعالى (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤف بالعباد (٢ : ٢٠٣) اي ان هؤلاء يصبحون مورداً للرحمة الربانية الخاصة لقاء بيعهم

أنفسهم في سبيل الله تعالى . وبالجملة فان هـذه التضحية النفسية المذكورة ههنا روح الاستقامة التي توصل الانسان بالله . فليتذكر من شاء أن يتذكر

﴿ الوسيلة السابعة ﴾

الصحبة الصالحة

الوسيلة السابعة لاحراز المقصود الحقيقي هي مصاحبة الصالحين وملاحظة أعمالهم الحسنة لا يخفى أنه من احدى ضرورات بعثة الأنبياء بأن الانسان بطبيعته يحتاج الى الاسوة الكاملة فان الاسوة الكاملة تزيد في الشوق والرغبة وتضاعف الهمة . ومن لم يقتد بالقدوة يتبلد ويضل الطريق . لذلك امرنا الله بقوله : وكونوا مع الصادقين (٩ : ١٢٠) وعلمنا هذا الدعاء : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم

﴿ الوسيلة الثامنة ﴾

الرؤيا والكشف والوحي

والوسيلة الثامنة هي الرؤيا الصالحة والكشوف

المباركة والمحادثة الربانية المنزهة عن جميع وساوس الخناس .
بما ان السلوك الى الله صراط دقيق جداً محفوف بانواع من الأخطار والمخاوف وقد يتيه الانسان في مجاهيلها أو ييلس ويحجم عن السير ، لذلك فقد اقتضت رحمة الله أن يسايره بنفسه ويسليه ويؤاسيه ويزيد في شوقه ويؤيده من لدنه طول هـذا السفر ولم تزل سنته في هذا السبيل انه من وقت لآخر يطمن سالكيها بكلامه ووحيه ودائماً يظهر لهم انه معهم فاذا هم يستفيضون قوة ويقطعون هذا السفر بكل مرح ونشاط . يقول سبحانه وتعالى في هذا الموضوع : لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة (١٠ : ٦٥) . وقد ذكر الفرقان الحميد عدا هذه الوسائل ايضاً الا اننا لا يمكننا مع الاسف أن نأتي بجملتها خوف الاطالة

السؤال الرابع

الشريعة كفيلة للتربية الكاملة

اذا فعل الشريعة العملية في الحياة الدنيا وفيما بعدها :

فالجواب على هذا السؤال انما هو نفس الجواب الذي قد ذكرناه سابقاً اي ان تأثير الشريعة الالهية الكاملة على قلب الانسان في الحياة الدنيا هو تحويله من الحالة الوحشية الى طبقة الانسانية الأولى ومن ثم تهذبه هي وتجعله انساناً خليقاً مدنياً ثم تبدّل هذا الانسان المتمدن انساناً ربانياً .

آثار التربية الكاملة

ومن تأثير الشريعة العملية في الحياة الدنيا ان الانسان اذا اتبع الشريعة الحقة كان له في بني نوعه أثر جميل بحيث يعرف لكل منهم حقه على حسب المراتب ويستعمل العدل والاحسان والرحمة وغيرها من الصفات كلاً في محلها ويشرك الناس اجمعين فيما رزقه الله من العلم والعرفان والمال ورغد العيش ـ يشرك فيه جميعهم على قدر المنازل . كالشمس يبعث نوره كله في بني نوعه وكالبدر يستمد من نور الحضرة العلياء ثم يفيض نوره هذا على الآخرين وكالنهار يتجلى ويرى الناس سبيل الهدى من سبيل الضلال وضحاً وكالليل يستر عيوب الضعفاء ويروح كل تعبان منهوك .

وكالسماء يظل كل ذي حاجة بظلاله ويغيث في حينه فيضوض الغيث ومن كمال التواضع يصبح كالارض فراشاً لراحة البشر ويضم الجميع في اكناف رحمته ويعرض عليهم انواع الثمار والفواكه الروحانية .

فهذا هو اثر الشريعة الكاملة في الحياة الدنيا أي ان المتمسك بها يبلغ في تأدية حقوق الله وحقوق عباده آخر نقطة الكمال ويمحو في الله ويكون لمخلوقه خادماً صادقاً. ليس الا

مظاهر الربوبية الكاملة في الكون

وأما تأثيره فيما بعد هذه الحياة فهو ان وصال الله الروحاني يشاهد يومئذ ظاهراً رؤية العين وان الخدمة خدمة الخلق التي قد خدمها الانسان لوجه الله محضاً والتي كان المحرك فيها حب الايمان والاعمال الصالحة ترى يومئذ متمثلة جنات وأنهارا . وانه في هذا الموضوع يفيض سبحانه وتعالى حيث يقول : والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلّاها والليل اذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها وقد

خاب من دساها * كذبت ثمود بطغواها اذا أنبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها (ـ ١١١ ـ) أي اقسم بالشمس وضياءها وبالقمر اذا أقبل يتبعها أى اذا أخذ يستمد من ضوء الشمس ويوصله الى الآخرين كما هي توصله أقسم بالنهار حين يجلو مطلع الشمس ويبين الطرق كل الابانة وأقسم بالليل اذا أظلم وطوى الجميع في طيات الظلمة وأقسم بالسماء وبالعلة الغايئة التي اوجبت بناءها هذه وبالارض وبالعلة الغائية التي اوجبت فراشها على هذا الطراز واقسم بالنفس وكمال النفس الذي جعلها مع هذه الكوائن على مستوى واحد حيث أصبحت نفس الانسان الكامل تستوعب في ذاتها جميع الكمالات التي توجد في الكوائن المذكورة متفرقة انه كما تخدم هذه الاشياء النوع البشري كل على حدة بوظيفته المتعينة فكذلك يقوم الانسان الكامل وحده بوظائفهن أجمعها كما سبق القول آنفاً

معنى الفلاح

ثم قال : قد أفلح من ذكاها . أي قد فاز ونجا من الموت الأبدي من طهر النفس من جميع الشوائب وكان شأنه في خدمة الخلق شأن الشمس والقمر والارض وغيرها يخدمهم أجمعين خدمة المضمحل في ذات الآله الاعلى

لا يسهون عن الخاطر ان المراد بالحياة هنا الحياة الابدية التي ينالها الانسان الكامل وان الفلاح المذكور في الآية ليومىء الى ان ثمرة الشريعة العملية في عالم الآخرة هي الحياة السرمدية التي تبقى غصناً نضيراً على الدوام بفضل المشاهدة الربانية . ثم قال : وقد خاب من دساها . أي قد بارو قنط من الحياة . الانسان الذي خسف نفسه ولم يحملها على ا كتساب الكمالات التي كانت أودعت اياها عدتها من الاستعدادات والملكات بل وآب منها بالكساد بعد ان قضى عمره في المعيشه النجسة

التمثيل اللطيف

ثم ضرب سبحانه وتعالى مثلا من قصة ثمود لما لها

مشابهة بقصته . وذلك لان أهل ثمود عقروا ناقة الله ومنعوها الشرب من موردها كما ان هذا الانسان ايضاً عقر ناقة الله وحرمها من معينها فيلمع هذا التمثيل الى ان النفس البشرية هي ناقة الله التي يمتطيها الانسان أي ان قلب الانسان هو محل التجليات الآلهية وأن وِرْد هـذه الناقة هو محبة الله ومعرفته ، بهما تحيا هـذه الناقة . ثم قال : فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها . أي انهم لما عقروا الناقة وصدوها عن موردها أخذهم العذاب ثم لم يعبء الله بالأيتام والارامل قطعاً ـ كائناً ما كان فصيرهم بعد هلكتهم ـ ولكذلك يهلكن الانسان الذي يعقر ناقته ولا يريد ان يوصلها كمالها بل يردعها من الورد المورود

معنى الاقسام الواردة في القرآن المجيد وحكمتها

ومما هو حقيق بالذكر ههنا خاصة هي الحكمة الغامضة التي تنضوي عليها الاقسام المذكورة في أوائل السورة السالفة لان كثيراً من المخالفين يعترضون عن جهل

ويقولون ماذا احوج الله انه أخطر الى الايمان وانشأ يقسم بالمخلوق ؛ يقولون هـذا وما يفهمون المعارف الحقة لان مداركهم أرضية غير سماوية . أليس الظاهر الواضح ان الحالف غرضه من الحلف الاستشهاد على دعواه ، فانه انما يلجأ الى يمين الله حيث لا يجد الشهداء ويحلف به اذ هو سبحانه عالم الغيب والشاهد الاول في كل قضية ودعوى فكان الحالف بالله يشهد، بما معناه انه ان لم يأخذه بالعقاب وسكت عنه فكأنه قد ختم على دعواته بالتصديق كما يختم الشاهد علي شهادته . وعلى هذا لا يحق للمخلوق البتة ان يحلف بالمخلوق الآخر فان المخلوق لا يعلم الغيب ولا هو يقدر على معاقبة احد على شهادة الزور . هذا وان أقسام الله تعالى المذكورة في الآيات السالفة ليست من هذا القبيل وانما صورتها سنة من سنن الله وهي ان افعال الله قسمان قسم بديهي محسوس يمكن ان يدركه الجميع بدون اختلاف وقسم نظري يخطىء البشر فيه ويختلفون فيما بينهم . لذلك فقد أراد الله تعالى ان يعرّف الامور النظرية

بشهادة الامور البديهية المرئية

مظاهر الربوبية الكاملة في نفس الانسان

ومما هو ظاهر ان الشمس والقمر والنهار والليل والسماء والارض لقد توجد في كل منهما الخواص التي ذكرناها فيما مضى . الا ان وجود تلك الخواص في نفس الانسان الناطقة أمر مجهول لا يعرفه كل أحد . لذلك فقد استعرض سبحانه أفعاله المشهودة استيضاحاً لأفعاله النظرية المستورة واستشهاداً عليها فكانه ـ بالتعبير الآخر ـ يقول ان كنتم في ريب من وجود الخواص المذكورة في نفوسكم الناطقة ، فتدبروا اذاً في خلق السموات والارض وما بينهما تجدوا اياها هنالك عياناً . ثم انكم تعلمون ان الانسان عالم صغير رسمت في نفسه خارطة العالم الكبير باسره على الاجمال وبما انه ثابت فتحقق ان أجرام العالم الكبير لها تلك الخواص وانها من فضلها مصدر النفع العميم لجميع المخلوقات ، فكيف بالانسان أن يخلو منها ويكون محروماً وهو ـ على ما نعلم ـ يدعى أفضل المخلوقات وقد

خلق بالحقيقة في أحسن تقويم وأعلى درجة ؟ كلا لا يمكن ذلك - ان فيه ايضاً ضياء من العلم والعقل كضياء الشمس وبامكانه أن يضيء به العالم كله وانه ليتلقى من الحضرة العليا - كمثل القمر - نور الكشف والالهام والوحي ويبلغه الى الذين لم يستوفوا من الكمال الانساني حظهم المطلوب . فكيف - والحقيقة هذه - يسوغ القول ان النبوة باطلة وان جميع الرسالات والشرائع والكتب انما هي خدع تزويرات تذرع بها الانسان قضاء لمآربه الذاتية . اننا وكذلك نشاهد ان كيف تضاء الطرق كلها وتضحى عياناً الوُهد والانجاد مع انبلاج الصبح وشد النهار . لكذلك الانسان الكامل هو نهار الضوء الروحاني تستبين كل سبيل عند اشراقه ويرى الناس اين الصراط المستقيم واين يسلك السبيل السوي وذلك بانه هو النهار الابلج من الحق والصدق . وكذلك نشاهد أن كيف يؤوى الليل التعبان والعيان وكيف يجد برد الرقاد في أعطافه العمال الرزح الخؤر بطول الكدح ظل النهار ويستريحون من الآواء المعيشة

النكدة ويتنفسون من محن الحياة الدنيا . ثم ان الليل كذلك يرخي سدوله على الجميع بلا تفريق ولا تمايز . فهكذا شأن عباد الله الكمل الملهمين فانهم انما يأتون ليفرجوا عن العالم ويمحو من النجوع النفسى ذوي الالباب . لقد تنحل بفضلهم أعقد المسائل وتنكشف أدق المعارف بكل سهولة ويغشى الوحي الرباني على عورات العقل الانساني كما يغشى الليل ولا يدع أن تنفضح على الدنيا خطيئاته الخبيثة

الوحي ممد العقل

ان ارباب العقل متى ما أنسو نور الوحي أصلحوا أغلاطهم من عند انفسهم واتقوا معرة الفضيحة بفضل بركة الوحي المقدس . لذلك لن تجدوا ابداً حكيماً مسلماً قرب للنصب دجاجاً كما فعل افلاطون الفيلسوف وبما ان هذا الفيلسوف كان محروماً من نور الوحي فقد انخدع وابتدرت منه تلك الحماقة البشيعة مع ادعاآته الفلسفية ولكن حكماء الاسلام عصموا من كهاتي الحركات النجسة الحمقاء بفضل اقتداهم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ارأيتم كيف يثبت هـذا الفارق ان الوحي يؤارى سوأة العقلاء كمثل الليل . ثم لا احسبكم إلا تعلمون ان عباد الله الكاملين يُرحبون في ظلالهم بكل منهوك لاهف ـ لاسيما انبياء الله القدوس ومحدثيه فانهم كالسماء يشملون الجميع بفيوض الفيداق العميم ولهم كذلك خواص الارض كما تنبت نفوسهم الزكية من نبات العلوم العالية انواعاً متنوعة فيها للناس ظل واكل وروح وريحان . فهاتكم ظواهر الكون كشافاً . باعيننا ! انها لشواهد على ملكوت الفطرة الكامنة وان شهادتها هذه هي التي قد عرضها الله تعالى معرض الاقسام . فانظروا ـ دعاكم الله ما أبلغ هذا الكلام الذي امتاز به الفرقان الحميد وما احكمه ! فياعجباً انه انبثق من بين شفتي ذلك الانسان الذي كان من اهل البدو وكان امياً ! فلو كان الكلام من عند غير الله لما كلت العقول العامة وأعيت افهام اولئك الذين يدعون العلماء في اكتناه هذه المعرفة الدقيقة ولما نظروا فيها بعين التشاؤم وما كانوا بمعترضين . لمن عادة الانسان انه اذا لم يقدر ان يفهم كلمة

حكمة بعقله القاصر فانه يتخذها موضع الغمز والطعن ولا يدري ان طعنه فيها شهادة ناطقة على ان الكلمة الحكيمة انما كانت فوق المدارك العامة وكانت أعلى منهاه فلذلك اعترض عليها أولو الالباب مع ادعاءهم العقل والادراك . واما وقد انكشف الآن هذا السر المكتوم لا يعودون اللبيب من بعده يتنقصه وينتقد عليه بل وسيلتذ به

المثال الثاني من امثال القرآن المجيد

ثم ان القرآن الحكيم قد اقسم بمثل هذا القسم في مقام آخر استشهاداً على سنته المستمرة في الوحي وقال : والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع انه لقول فصل وما هو بالهزل (٨٤ : ١٤) اي اقسم بالسماء التي ينزل منها الغيث واقسم بالارض التي تتصدع من انواع النبت بسبب ذلك الغيث ان هذا القرآن كلام الله ووحيه وانه حكم فصل بين الحق والباطل وما هو بالقول العبث الهازل اتى في غير أوانه بل انما كان كالوسمي الهاطل في أبانه

الناموس العام

فالظاهر من منطوق الآية ان الله تعالى ألفت النظر الى سنته المطردة الظاهرة بواسطة القسم واستدل به على صدافه القرآن المجيد . وتفصيل هذا الاجمال ان السماء ـ كما هو مشهود مرئي ـ تمطر عند الضرورة وان خصب الارض كله يتوقف على المطر . فلو امسكت السماء غيثها نضبت الآبار شيئاً فشيئاً لان وجود الماء في الارض انما هو راجع لجود السماء . لذلك ترون مياه الآبار الارضية تمد كلما استهلت السماء ـ أترون لماذا تمد ! ليس الا لان السماء تزيد في مياه الأرض وتجتذبها الى الفوق ـ فتلكم الرابطة عينها فيما بين الوحي الرباني والعقل البشري

الرابطة بين الوحي والعقل

الوحي هو الماء السماوي والعقل هو الماء الأرضي وهذا الماء دائماً يستفيض ويزداد بذلك الماء ولئن ينقطع الماء السماوي اي الوحي الرباني ، يذهب هذا الماء الارضي كذلك جفافاً بالتدريج وناهيكم برهاناً عليه أنه اذا ما مضى

زمن طويل ولم يبعث في الارض نبي تأفن عقول ذوي الألباب وتفسد آراؤهم غاية الفساد كما تفسد وتتعفن مياه الأرض وتفيض عند الجدب والقحط

شهادة التاريخ على الرابطة المذكورة

ولان تفهموا ما قلناه يكفيكم أن ترجعوا البصر فيما كان من حالة الشؤون العامة في العصر الذي سبق بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ كانت انسلخت ستة قرون منذ بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ولم يبعث في تلك الفترة احد من الرسل وكان العالم باسره قد أفسد أحواله . ها هي تواريخ الامم تصطرخ اجمعها بصوت جهوري أن الخيالات الباطلة كانت قد طبقت الآفاق باسرها قبل ظهور الرسول العربي عليه صلوات الله وسلامه ولماذا كان كل ذلك يا هلترى ؟ كان ذلك لان الوحي الرباني كان انفصم منذ زمن مديد وكان الملكوت السماوي بيد العقل الأجوف فهل يجهل أحد أي موارد البوار اورد هذا العقل الناقص العالم كله ! الا فانظروا أن كيف ذالت

فوردا مياه العقول طالما لم يمطر ماء الوحي ثم اغدقت وفاضت وطمت الارض حين التنزيل !

عصر البعثة واشراطه

ان هو الا هذا الناموس الطبيعي الذي عرضه الله علينا ضمن هاتيك الاقسام ويطلب منا اجالة النظر في ظواهر الكون وان نتدبر أليس أمر الله وناموسه الأزلي بأن حياة الارض تقوم بماء السماء ؟ بلى ! فاذاً هذه السنة الالهية الظاهرة شاهدة ناطقة على السنة الخفية التي هي سلسلة الوحي والنبوة : فاذاً يجب أن نستفيد من هـذه الشهادة ولا نتخذ العقل المجرد هادياً فانه ليس بالماء الذي يمكنه البقاء بدون الماء السماوي فكما أنه من خاصة المطر أنه تفاض الآبار به وتمد مياهها بجاذبيته الطبيعية سواء أوقع فيها أم لم يقع ، لكذلك يكون الحال حين يظهر في الارض نبي من أنبياء الله أي أنه سواء أن اتبعه عاقل أم لم يتبعه تستنير القول في عصره من تلقاء أنفسها وتجلو جلاء لم يكن بها قبل ويشرع الناس في البحث والتحقيق

طوعاً أو كرهاً . ومن الغيب تنبعث الحركة في قوتهم المفكرة وانما يحصل هذا الانتباه العقلي والانبعاث النفسي بقدوم هذاك الانساني الرباني الميمون الطائر . ومتى جاء يرفع المياه الارضية على الخصوص . فاذا شهدتم أن كل أمرؤ هب يفحص الأديان وأن المياه الارضية في تموج وهيجان فانهضوا اذ ذاك وانتبهوا واعلموا يقيناً أن قد بعق من السماء هاطل مدرار وان قلباً أخضل بشؤبوب الوحي

السؤال الخامس

مدارج العرفان الثلاثة

ما هي وسائل العرفان الالهي ؟

أقول في جواب السؤال المذكور أنه لا يسع المقام قطعاً أن يذكر باستيعاب كل ماقاله القرآن المجيد مفصلا في هـذا الموضوع . على أنني ساحاول الالمام به بقدر الضرورة على سبيل الانموذج . فاعلموا أن الفرقان الحميـد قسم العلم في درجات ثلاث وهي ـ كما ذكرناها في تفسير سورة التكاثر ـ علم اليقين ـ وعين اليقين وحق اليقين

وقد قلنا هنالك أن علم اليقين هو الاستدلال على الشيء المقصود بالواسطة كما نستدل بالدّخان على وجود النار ، اذ اننا لا نشهد النار عياناً وانما نشهد الدخان المتصاعد ومن ثم نعرف باليقين أن هناك النار لذلك كانت هذه المعرفة علم اليقين . ثم هب أننا نظرنا النار نفسها فهذه المرتبة من مراتب العرفان تسمى عين اليقين حسب مصطلح القرآن الحكيم . ثم ان صلينا النار يكن علمنا بها اذاً من مرتبة حق اليقين وفقاً لتعبير القرآن المجيد ولا أرى من حاجة لاعادة سورة « التكاثر » ههنا . فمن احب منكم مراجعة تفسيرها فليراجعه في مكانه . بعد هـذا البيـان المختصر اعلموا ان وسيلة القسم الاول من أقسام العرفان المذكورة أي وسيلة علم اليقين هي العقل والمنقولات

مقام السماع في العقل والعرفان

يقول الله تعالى حكاية عن أهل الجحيم : قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (٦٧ : ١٠) أي يقولون اذ ذاك ياويلنا لو كنا نصغى الى أقوال المحققين

وأولي الالباب بآذان واعية أو لو كنا نسترشد بعقولنا وتختبر الدين بطرق معقولة لما كنا اليوم في عذاب السعير . ان هذه الآية تضارع الآية التالية في المعنى حيث يقول الله تعالى : لا يكلف الله نفساً الا وسعها . (٢ : ٢٨٦) . أي أنه سبحانه وتعالى لا يحمل النفس البشرية على قبول ما ليس في وسعتها العلمية ان تقبله ولا يعرض على الانسان الا العقائد التي في طاقته أن يفهمها وذلك لكي لا تكون اوامره من قبيل التكليف لما لا يطاق . وكلتا الآيتين تشير الى أن الانسان بامكانه ان يستفيد علم اليقين بواسطة سمعه أيضاً مثال ذلك علمنا بلندن بانها مدينة من المدن او بعالمكير كونه سلطاناً من سلاطين العائلة الجغتائية

شرط الصحة في السماع

انا لم نر المدينة المذكورة رؤية العين وما رأينا شكل السلطان المشار اليه ولا ادركنا عهده وانما سمعنا الرواة والزوار يحدثون عنهما فهل نشك بصحة الرواية ونقول لعلهم يكذبون جميعهم ؟ كلا فكيف حصلنا على هذا

اليقين ؟ اليس بطريق السماع المتواتر ؟ بلى وانه لا مراء في ان السماع ايضاً يوصل الانسان الى مرتبة علم اليقين وان صحف الانبياء كذلك ذريعة من ذرائع العلم السماعي بشرط ان لا تكون قد اختلت اسانيد روايتها . واما اذا كان كتاب يدعى انه كتاب سماوي وله خمسون او ستون نسخة تختلف بعضها عن بعض . ثم اعتقد فريق من الناس ان اثنتين او اربعاً من هاتيك النسخ صحيحة وما سواها موضوعة مزورة ، فلا يكون الا باطلا عند المحقق كهذا الاعتقاد الذي لم يبن على التحقيق الكامل وتكون النتيجة انه يحكم على تلك الاسفار جميعها بكونها مردودة غير موثوقة لما تنضوي عليه من التناقض ولن يجوز ابداً ان تعتبر كهذه الاقوال المتناقضة ذريعة للعلم فان العلم حده المنطقي انه يكسب المعرفة اليقينية . وهذه المعرفة مستحيل ان تأتي عن مجموعة المتناقضات

مزية القرآن المجيد في بيانه وذكره

الا فاعلموا ان القرآن المجيد ليس بقاصر في بيانه على

السماع فقط بل انّ فيه آيات بينات من البراهين وانه لا يوجد بين جميع ما عرضه من العقائد والاصول شيء فيه تحكم او تعنت بل ان جميع مبادئه وقواعده كما نوه الله عنها نفسه ـ منقوشة مركوزة في جبلّة الانسان . لذلك سماه الذكر في قوله هذا ذكر مبارك .... الخ (٢١ : ٥١) ومعناه انه كتاب مبارك لم يأت بأمر محدث وانما يذكر الانسان بكل ما هو مودوع في فطرته ومرسوم في صحيفة الملكوت . ويقول في موضع آخر: لا اكراه في الدين .... الخ (٢ : ٢٥٧) اي ان هذا الدين لا يكلف احد ان يتقبل شيئاً منه على كره بل يبين مع كل امر من اوامره أدلته وله عدا هذه المزية خاصية روحانية لتنوير النفوس وهي ـ كما يقول سبحانه وتعالى : شفاء لما في الصدور . (١٠ : ٥٨) . أي انه بفضل خاصيته ينزع من النفوس اسقامها كلها : لذلك فالقرآن فوق المنقول بما فيه من البينات من الهدى والبراهين المعقولة من الطبقة العليا وبما فيه من النور النير الساطع

أهمية الدلائل العقلية في العرفان

ثم ان الدلائل العقلية المستنبطة من قضايا ثابتة هي كذلك لا ريب مما يوصل الانسان الى علم اليقين واليه يشير الله في الآيات التالية حيث يقول سبحانه وتعالى : ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار . (٣ : ١٨٧) ان الحكماء وأرباب العقل حين يفكرون في تكوين الارض والاجرام السماوية ويمعنون النظر في بواعث الظواهر الكونية كاختلاف الليل والنهار في القصر والطول وما أشبه ، يهتدون الى وجود الله سبحانه وتعالى وينشطون لمزيد الاستطلاع والانكشاف ويستعينون بالله ويذكرونه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم حتى اذا زادت عقولهم جلاء وفكروا بها في نظام الافلاك والارض الاتم الاحكم قالوا على البداهة رغم أنفسهم ما هذا النظام الا بلغ الاتقن

بالباطل العبث وانما هو مرآة ترى محيا الخالق الحق وأذعنوا بألوهية الخالق وناجوه ربنا سبحانك وحاشاك ان ينكر ذاتك أحد او يصفها بما لا يليق بشأنك فقنا عذاب النار اي صنا من جحودك فان الجحود بك هو الجحيم عينه ولان الراحة كل الراحة والطمأنينة كل الطمأنينة في معرفتك فمن كان محروماً منها كان بالحقيقة في النار في هذه الدنيا

حكم الفطرة والوجدان

وكذلك الوجدان البشري وسيلة من وسائل العلم وهو تلك الجبلة التي سميت في كتاب الله باسم الفطرة حيث يقول سبحانه وتعالى: فطرة الله التي فطر الناس عليها. (٣٠ : ٢٩) وما هذاك الطبع المفطور ياهلترى؟ ان هو الا الاعتقاد بوحدانية الله وربوبيته الشاملة وتنزيهه عن الولادة والموت ـ نقول ان حكم الوجدان بمنزلة علم اليقين لانه وان يكن فيما يظهر لا يوجد فيه الانتقال من علم الى آخر كما يوجد الانتقال من علم الدخان الى العلم بوجود النار حيثما كان ـ لا يخلو هو أيضاً من الانتقال الدقيق بنوع

من الانواع وذلك بأن الله سبحانه وتعالى أودع في كل شيء خاصية مجهولة ـ لا يمكن ان يحيط بها الوصف والبيان وانما لها مخايل اذا تخيلها الانسان وأمعن النظر فيها انتقل الذهن حالا الى تلك الخاصية بما كان بينهما من التلازم الشديد كالتلازم الذي بين النار والدخان

خذوا مثلا ذات الاله وصفاته بأن كيف يجب ان تكون هي . أينبغي ان يكون الاله مولوداً كمثلنا ـ يقاسي الآلام كما نقاسي ويموت كما نموت نحن ؟ ما ان يمنّ لنا هذا التصور اللاهوتي الا ويمتعض منه القلب امتعاضاً ويشمئز الوجدان ويثور عليه ويأباه ويدفعه دفعاً عنيفاً وينادي قائلا سبحانه الاله القدوس الذي على قدرته مدار جميع آمالنا سبحانه وتعالى عن العيوب والنقائص كلها . ما أن يمرّ بخاطرنا خيال الاله الا ونشعر معه في سويداء قلوبنا بوجود التلازم بين الألوهية والوحدانية كمثل التلازم الذي يوجد بين النار والدخان أو أشد منه . لذلك فالعلم الحاصل بواسطة الوجدان يدخل أيضاً في عداد علم اليقين

العرفان الكامل ووسيلته

وهناك درجة ثانية من العرفان فوق هـذه الدرجة ، تسمى عين اليقين والمراد به الايقان الذي لا يتوسط بينه وبين الشيء الموقن به من واسطة ما . مثال ذلك ما نشمه من رائحة زكية أو كريهة بواسطة القوة الشامة أو ما نذوقه من الحلو أو المالح بواسطة القوة الذائقة أو نحسه من الحرارة والبرودة بالقوة الحاسة فكل هـذه المعلومات من قبيل « العلم عين اليقين » هذا واما علمنا بالالهيات مما يختص بالعالم الثاني فلا يبلغ درجة عين اليقين الا اذا تحظى بالوحي بلا واسطة ونسمع الهتاف الرباني بآذاننا ونشاهد الكشوف الصحيحة الصادقة بامّ أعيننا . انا لا ريب محتاجون في اكتساب العرفان الكامل الى الوحي الرباني رأساً بلا واسطة ونجد كذا في انفسنا لهذا العرفان الكامل ظمأً وجوعاً فلولم يكن الله قد هيأ لهذه المعرفة أسبابها من قبل ، لما اوجد فينا سبحانه او امها ذلك ؟ أم هل نحن رضوان في حياتنا هـذه التي هي المقياس الوحيد لذخرنا

الاخروى بان نؤمن بالله الحي القادر الحق الكامل مصبوغاً بالاقاصيص والحكايات فقط او ان نكتفي مجرداً بالمعرفة العقلية التي لم تزل حتى الآن معرفة ناقصة غير كاملة وهل لا يود عشاق الله الخلصان المستهامون ان يتمتعوا من هذا الحبيب بلذة الكلام ، أم هل لا يمكن ان يقنع هؤلاء الذين ابسلوا وابادوا لوجه الله الدنيا بحذافيرها ثم اتبعوها قلوبهم واتبعوها انفسهم في أثرها — هل يمكن ان يقنع هؤلاء ان يظلوا وقفاً في غبش من نور ضئيل لا ينفكون يذوقون الموت ههنا على الدوام محرومين من طلعة شمس الصداقة هاته افليس الحق ان بداء الله الحي « انا الموجودُ » يمنح من العرفان تلكم الدرجة بحيث لو وضعنا النداء انا الموجود في جانب ووضعنا في جانب آخر طوامير عنديات فلاسفة الدنيا اجمهم وقابلنا بينهما وجهاً لوجه لجاءت تلك الطوامير كلها لا شيء في مقابلة هذاك النداء . وما عسى ان ينض بيد هؤلاء الفلاسفة وما عساهم يعلمونا يا ترى وهم انفسهم مع ادعائتهم الفلسفية لا يزالون عمياناً يعمهون !

مقتضى الفطرة البشرية وسنة الله معها

أما لئن كان الله يريد ان يعطي طلاب الحق العرفان الكامل فلا جرم انه سبحانه وتعالى يكون قد فتح لهم باب المكالمة والمخاطبة ايضاً ! اجل ان سبحانه وتعالى ليريد ذلك ويقول به حيث يعلمنا الدعاء اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم فان المراد بالنعيم ههنا الكشف والوحي وما أشبههما من العلوم الالهية التي يعطاها الانسان من لدنه رأساً بلا واسطة ويقول في مقام آخر : ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . (٤١ : ٣٠)

الفارق بين الوحي وحديث النفس

فالظاهر من فحواء الآيات ان عباد اللهِ الصالحين يتلقون الوحي أبان الخوف والحزن وان الملائكة يتنزلون عليهم ويسلونهم . ويقول سبحانه وتعالى بمعناه في آية أخرى لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة (١٠ : ٦٥) أي ان أولياء الله يبشرون بالوحي والمكالمة في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة . ولا يبرحنّ البال أن ليس المراد بالوحي

ههنا نفث الروع أو حديث النفس كما قد يحصل ـ للشاعر اذا حاول نظم الشعر أو قال مصراعا واجال الفكر للثاني ثم لا يزال يتلجلج حتى ينفث في قلبه فهذا الالقاء ما هو الوحي وانما يكون نتيجة التفكر والتأمل تبعاً للنواميس المقدرة ان من يفكر في الحسنات وأو يهم بالسيئات ـ لانه ان يلهم في قلبه شيء وفقاً لسعيه . خذ مثلا رجلا صالحاً صادقاً يقول بصنعة أبيات ذوداً عن الحق وآخر خبيثاً فاجرا يدافع عن الباطل ويبذى على اهل الحق في أشعاره . كلاهما سينجح في نظم القوافي بعض النجح بل ولا غرابة هنالك أن لو جاء شعر هـذا العدو والبذيء احسن نظماً لدوام ملابسته اياه . فان كانت الهواجس النفسية مما يسمى الوحي فينبغي والحالة هذه ان يسمى ملهما الشاعر المتهتك الذي هو عدو الحق وعدو ارباب الحق والذي يمسك القلم ضد الصدق ويتذرع بالكذب والزور دائماً أبداً في معاندة الحق . ولقد يوجد في الروايات والاقاصيص البيان الساحر وتعلمون انه قد يلقي في قلوب الناس كهذه المواضيع الباطلة

محصناً المتسلسلة تسلسلا تاما فهل يجوز ان نسميها الوحي بل لو كان الوحي اسم الخواطر القلبية لكان السارق أيضا من المحدثين فانه كثيراً ما يعمل فكره ويستنبط حيلا متقنة في النقب والسرقة وتمر بخاطره أساليب ناجحة في الاغتيال والاغارة والنهب أيجوز اذا ان ندعوا جميع هذه الطرق الخبيثة باسم الوحي المقدس ـ كلا ـ بل انما هو ظن اولئك الاناس الذين لم يعرفوا الاله الحق الذي هو نفسه يواسي القلوب بكلامه الخاص ويعطي الغافلين البصيرة في المعارف الروحانية

ما الوحي الرباني

ما الوحي ؟ انه لمكالمة الاله القادر القدوس مع عبدٍ من عباده الخيار الاصفياء او مع الذي يريد ان يصطفيه . ومخاطبته اياه بكلام حي مقتدر فاذا ما ابتدأ هذا الكلام بالقدر الكفي الشافي . ولم يخالطه كدر الخيالات الفاسدة ولا كان هو عبارة عن الهتر والهراء بل وكان بالعكس كلاما لذيذاً ذا حكمة بالغة وهيبة وجلال فذاكم كلام الله

الذي به يريد هو ان يسلي عبده ويظهر عليه ذاته نعم وقد يكون كلامه مع عبد من عباده على سبيل الابتلاء والامتحان أحياناً . فلا يشتمل هذا الكلام حينئذ على متاع البركة باكمله لان سبحانه وتعالى يريد به ان يختبر العبد في حالته الابتدائية فيذيقه ذويقة المكالمة . فاما ان يأخذ أخذ انبياءه المخلصين في جميع اطواره بعد تلك الذائقة واما ان ينثر العثار . فطالما لا يختار الصدق الحقيقي كمثل الصديقين طالما يبقى محروماً من استيفاء تلك النعمة ولا يكونن في يده أبداً الا الترهات المارغة

سبب التفاضل فيما بين الرسل

ولقد اوحى الى الوف من العباد الصالحين ولكن لم تكن منزلتهم واحدة عند الله حتى وان انبياء الله القديسيين الذين هم بالدرجة الاولى يتلقون الوحي بكمال الوضوح ليسوا سواء في المرتبة : يقول سبحانه وتعالى : تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض الخ (٢ : ٥٤) ويظهر من قوله هذا ان الوحي فضل محض وانه ليس له على

الإطلاق أثر في تحقق الفضيلة وانما تكون الفضيلة على قدر الوفاء والصدق والإخلاص الذي يعلمه الله : نعم وقد يكون الوحي ايضاً من ثمرات هاتيك الصفات بشرط ان يكون مع اماراته واشراطه الميمونة :

اذا كان الكلام بصوره التحاور ـ العبد يسئل والرب يجيب فاذا كان السؤال والجواب على هذا الترتيب وكان في الخطاب الجلال والنور الربانيان وكان يشتمل على العلوم الغيبية او المعارف الحقة فلا شك البتة ان ذلك الكلام وحي الله : ان الوحي لا بدّ فيه من انْ تكون المحادثة فيه بين الله وعبده كما يحادث الصديقُ الصديقَ عند التلاقي وان العبد اذا سأله عن امر سمع في الجواب كلاماً لذيذاً فصيحاً خالياً كل الخلو من شائبة أحاديث النفس وهواجسها وان تكون له تلك المكالمة والمخاطبة منحة وموهبة : فان كان الوحي على هذا المنوال فذلكم كلام الله وهذا العبد عزيز في جنابه

على ان هذه الدرجة ـ اي كون الوحي موهبة وكون العبد المحدّث مشرفاً بالخطاب الحي المقدس

التواصل وبالوضوح والصراحة لا تحصل لاحد سوى أولئك الذين يسبقون بالايمان والاخلاص والعمل الصالح ويسبقون في الامر الذي لا نستطيع ان نحيط به وصفاً: ان الوحي الصادق المقدس ليرى العجب العجاب من أعاجيب الالوهية. كثيراً ما يبدوا من الغيب نور متألق غاية التألق: ويتدفق معه كلام جليل نير. ترى ما يبغى العبد أعظم من أنه يحادث رب السموات والارض! إنما هذه هى المشاهدة الربانية في الحياة الدنيا بأن يكلم الانسان ربه

الفرق بين حالة الموحي اليه وحالة المفتون

أما فلتات الكلام مما تنساب أحياناً على اللسان عرضاً من لفظ مفرد أو جملة أو بيت من شعر من دون ان يكون معه خطاب أو محادثة فهذه الحالة لا تدخل في وصفنا ذاك؛ بل وان هذا الانسان مغرور مفتون فان الله سبحانه وتعالى قد يفتن العباد الكسالى الغفل على هذه الشاكلة أحياناً فيلقى في الجنان معنى من المعاني أو يطلق على اللسان جملة

من الجمل فاذا الانسان يصبح كالاعمى لا يدري من اين أتته تلك العبارة ، من الله أم من الشيطان ! ألا ـ يلزم من مثل هذه الفقرات التعوّذ والاستغفار . وأما اذا ابتدأت المكالمة مع عبد صالح كشفاً بلا حجاب ويسمع له على أسلوب الخطاب و بكل جلال كلام جليّ عذب ملي المعاني طافحاً بالحكمة وقد اتيح له ذات مرار ان كان بينه وبين الله السؤال والجواب بالمشرات في حالة اليقظة التامة ـ هذا يسأل وذاك يجيب وذاك يلتمس وهذا يرد ثم يعود العبد لحينه فيستعطفه بتضرع فيجيب الله عنه أيضاً الى أن يبلغ هذا الحوار سؤالا وجواباً عشراً ثم زد أنه سبحانه وتعالى في عرض المحادثات المذكورة يستجيب له دعائه أحياناً كثيرة ويطلعه على المعارف النفسية والحوادث المقبلة ويشرفه بالخطاب العريان سؤالا وجواباً مرة بعد أخرى ـ فاذا كان العبد الصالح مشمولا بهذه النعمة فأحرى به أن يشكر الله تعالى شكراً كثيراً وأجدر بأن يفدى بنفسه في سبيل الله لانه بفضله المحض اجتباه لنفسه من بين

عباده الأجمعين وجعله وارثاً للصديقين الذين خلوا من قبله . ألا ان هذه النعمة نادرة النوال ومن حسن الطالع اذا ما أدركها الانسان فمن أوتيها أصبح لديه كل ما كان سواها كلا شيء

مزية الاسلام باعتبار العرفان

لقد كان ولم يزل في الاسلام رجال هذا المقام وان الاسلام وحده هو الدين الذي بهِ يزدلف الله من عبده زلفى ويشافهه بالكلام وينطق في باطنه ويتخذ من جنانه عرشه ثم من داخله يجذبه ويرفعه صعداً إلى السماء ويعطيه كل نعمة مما كان قد اعطاها الاولين . فياحسرة على الدنيا العمياء ما ندري انى يبلغ الانسان رويداً رويداً . انهم انفسهم لا يرفعون القدم ومن مشاها فاما كفروه واما الهوه ونصبوه مقام الله وكلا الامرين ظلم ـ هذا من التفريط وذاك من الافراط على ان العاقل ينبغي له ان لا يكون دون الهمة ولا ينكر هذا المقام ولا يغض من صاحبه ولا يشرع في عبادته لقد يظهر الله لعبده في معراجه هذا من الولاء والصداقة

علايق خارقة حتى لكأنه يلقي عليه رداء ألوهيته فيصبح هذا الانسان كمرآة صافية لطلعته . أنه لهذا السر المكتوم ولا غير قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : من رآني فقد رأى ربه : وهذا القول هو المنبه المنتهى للعباد و به ينتهي السلوك كله و ينال السلوان بكامله

الاعلان بالامر الواقع بناء على الشهادة الذاتية

انني لا كون قد ظلمت بني نوعي ان لم اعلن لهم في هذه الساعة انني على ذلك المقام الروحاني الذي وصفته هذا الوصف وان الله قد أعطاني بفضله من المكالمة المرتبة التي ذكرتها بالتفصيل فيما ها هنا لكي أمنح العميان البصيرة وأدل الطلاب على ضالتهم المنشودة وأبشر المؤمنين بشارة المعين المقدس الذي قد طال ذكره في الكثيرون وقل واجدون

اعلموا يقيناً ـ أيها السامعون ـ ان الاله الذي بلقائه يجد الانسان النجاة والسعادة الابدية لن يلاق الا باتباع القرآن المجيد . فيا ليت الناس يرون ما رأيت ويسمعون

ما سمعت ويتركوا الاقاصيص ويقبلوا على الحقيقة مسرعين!

الفرقان الحميد ذريعة العلم الكامل

ان ذريعة العلم الكامل التي بها يشاهد الله وان الماء الطهور الذي تنجاب به جميع الشكوك وان المرآة الصافية التي بها ترى طلعة الاله العلي الاكبر هي مكالمته التي ذكرت إياها منذ الهنيهة فلينهض ويطلب كل من كان في روحه طلب الحق. الحق أقول لو كان في الارواح الوجد الصادق وفي النفوس الغلة الحقيقية لطلب الناس هذا الطريق واستهموا بنشدانه اترون ايا يفتح هذاك الطريق وانى يرفع ذاك الحجاب اني لأؤكد للطالبين اجمعين ان الاسلام هو وحده يبشر بهذاك الصراط واما الأقوام الاخرى فقد ختمن على الوحي من زمان. واعلموا يقيناً ان ختمهم هذا ليس من الله في شيء وانما هذا العذر ينتحله الانسان عند الحرمان. واعلموا يقيناً انه كما لا يمكن ان نرى بغير البصر او نسمع بدون السمع او ننطق بلا واسطة اللسان «فكذلك مستحيل» ان نشتاف الى طلعة هذاك الحبيب الودود

بدون الفرقان الحميد . ولقد كنت شاباً والآن أنا شائب فلم اجد طول العمر احداً ممن يكون قد شرب كأس العرفان الكاشف من غير هذا المعين فيا ايها الاعزاء ويا ايها الاحباب اما لاحد قبل ان ينازع الله في مشيئته وإرادته فاعلموا يقيناً أن ذريعة العرفان الكامل هي الوحي الرباني ـ الوحي الرباني ـ الذي أوتيه النبيون المعصومون ثم من بعدهم لم يرد الله الفياض ابداً ان يختم عليه في المستقبل وكذا لهلك العالم كله

باب الوحي مفتوح للأبد

ألا إن ابواب وحيه ومكالمته لمفتوحة ابد الآبدين فالتمسوها من دروبها تجدوا الامر سهلا هينا . ولقد نزل من السماء ماء الحياة واستقر في قراره المناسب . فماذا يجب الآن ان تفعلوا فتستطيعوا شربه ؟ ما عليكم الا أن تردوا ذلك السلسبيل على الاعياء متساقطين متناهضين ثم ضعوا قبالته أفواهكم واصأبوا هنالك من زلال الحياة الا إن سعادة الانسان كلها في ان يسعى الانسان الى حيث

آنس ذلك النور وأن يسلك الطريق أينما توسم سماة ذلك المحبوب المفقود

فطرة الله وسنته في شؤون الخلق

ترون أن الضوء ينبثق دائماً من فوق السماء وينبت في الارض . لكذلك يطلع نور الهدى الصادق مطلعه إن تخرّصات الانسان وعندياته المتفقة من تلقائه لن تؤتيه المعرفة الحقة . هل أنتم مدركون الله بغير تجلياته أم أنتم قادرون على الرؤية في الظلمات بدون النور السماوي ؟ فان استطعتم هذا أفعسا كم تبلغون ذاك أيضاً على أنه مهما تكن أعيننا مبصرة فانها لا محالة تفتقر الى الضوء السماوي ومهما تكن آذاننا سماعة فأنها لا جرم تحتاج الى هذا الهواء الذي يهوى من تلقاء الله . ما هو الاله الحق الاله الصامت المصمت الذي على حدسنا يقوم وجوده كله بل أن الاله الكامل الحي هو ذاك الذي لم يزل ينشد نفسه بنفسه — ألا قد حان أن تنفتح طاقات السماء إن الصبح الصادق المنصدع . وبورك من ثبّ واستوى جالساً وجعل يفتش

عن الاله الحق ذلك الاله الذي لا تدور عليه الدائرة ولا تنقض من لألآء جلاله الحدثان . يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : الله نور السموات والارض (٢٤ : ٣٥) أي أنه هو مبدأ الانوار جميعها وبنوره أشرق كل مكان انه هو شمس الشموس وحياة كل ذي حياة في الارض وفي السموات العلى وهو الاله الحق الحى فبورك من قبله وآمن به

الابتلاء أيضاً وسيلة من وسائل العرفان

أن الوسيلة الثالثة للعلم والعرفان هي تلك الامور التي على مرتبة حق اليقين وهي الشدائد والمحن والمصائب التي تنال النبيين والصديقين من أيدي الاعداء او تفاجئهم بحكم القضاء والقدر . لمن فضل الابتلاء تتكيف بصبغة العمل جميع الهدايات الشرعية التى لا تكون في نفس الانسان الا معلومات مجردة قبل ان تمركه شدة البأساء والضراء فتنشأ هي عن جديد من تربة العمل وتنمو وتتأصل حتى تبلغ أشدها فاذا بالعاملين ـ تصبح نفوسهم نسخة كاملة

من الشريعة الالهية وتأخذ الجوارح كل نصيبها من جميع الاخلاق مثل العفو والانتقام والصبر والرحم وغيره مما لا تكون قبلا الا حشو الدماغ والقلب فترد على الجسم كله بفضل المزاولة العملية وتطبع فيه نقوشها كما يقول الله سبحانه وتعالى : ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون . (٢ : ١٥٠) لتبلونّ في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور (٣ : ١٨٣)

ماهية العلم بدون العمل (ورياضة)

كلا ليس الفضل والشرف بالعلم المجرد الذي ما هو الا حشو الدماغ والقلب . بل ان العلم في الحقيقة هو ذاك الذي ينزل من الذهن ويتغلغل في الجوارح كلها ويصبغها بصبغة الادب وتتمثل به ذكريات الحافظة كلها في قالب الاعمال

لا ريب ان الواسطة الـكبرى في اتقان العلم ونمائه هي أن تنتش نقوشه في الاعضاء بالممارسة العملية بل لا يبلغ كماله بدون التمرين شيء من العلوم مهما يكن في ذاته حقيراً . نعلم مثلا بطول المشاهدة أن صناعة الخبز أمر سهل جداً لا يتطلب دقة ما . كل ما في العمل هو عجن الدقيق وتكتيل العجين بقدر الرغيف ثم الرغف والـكمز والطلم ثم بسط الطامة على الساج وقلبها من ها هنا وها هنا حتى استوت ونضجت ملّت على الجمر فكانت هي خبزاً . ان هذا الا ادعائنا العلمي وأما اذا قمدنا نخبز مع عدم التجربة السابقة فأول مصيبة نجبه بها في ذاك هي المحافظة على قوام العجين المناسب فانه اما أن يتصلب أو يلين ويسترخي ويصير أولى بالعوّامات . وهب انه أمكننا العجن بعد لاياماً فيكون ما خبزناه ممتهشاً محترقاً بعضه وبعضه نياً وفي وسطه كتلة متلبدة ويكون قد تهدّل من جوانبه في أضلاع متعددة وهكذا نكون قد أضعنا من الطحين بضعة أرطال من شؤم العلم المجرد الذي لم يلابسه

العمل . وكل هذا مع كوننا لم نزل نرى كيف يخبز منذ خمسين عاماً . فما دام هذا حالنا من العلم في الامور التافهة أترى ما يكون حظنا منه في العظائم ان اعتمدنا فيها على المعرفة السطحية من غير التمرين والمزاولة العملية ! لذلك فقد علمنا الله تعالى في الآيات المارّة آنفاً أنما يبتلينا به سبحانه وتعالى وما يحل علينا من صنوف الالام انما تكون وسيلة التجربة وتكميلا للعلم والهداية

وخلاصة الايات أن العلم الميمون انما هو ذلك العلم الذي يتجلى في مرتبة العمل وان العلم المشؤم هو الذي يقصر دون النظر ولا يتجاوز الى العمل أبداً

اعلموا أنه كما يربو المال ويثمر بالتجارة فكذلك العلم ينمو ويبلغ كماله الروحاني بواسطة المزاولة العملية . ألا ان أكبر وسيلة في استكمال العلم غايته هو الرياضة . بها يستنير العلم

الأسوة الكاملة في حياة سيد الرسل

ثم أترون ما يكون ارتقاء العلم الى درجة حق اليقين؟ ماذا عساه أن يكون الا ان يختبر اختباراً عملياً من جميع

الوجوه كما وقع مثله في الاسلام بالفعل فانه مهما علمه الله تعالى الناس من تعليم خوّلهم معه ظروفاً واحوالا ملائمة ووفقهم لان يتبينوا بالعمل ذلك التعليم ويستجلوه كل الجلاء وان يمتلئوا من نوره . لذلك قسم الله تعالى حياة نبينا صلى الله عليه وسلم في عصرين ـ عصر الآلام والمصائب وعصر الفتح والظفر ـ لتنكشف اوان العسرة وتبرز بالثاني الاخلاق التي لا تبرز الا مع الاقتدار والغلبة ولا ريب ان سيد الرسل ظهرت أخلاقه من كلا القسمين الظهور الكامل اذ صادف جنابه كلا العصرين مع اختلاف الحالات . راجعوا مثلا سيرته في اوقات المصائب ـ تلك التي لجت به لمدة ثلاثة عشر حولا في مكة ـ راجعوا سيرته اذ ذاك يتبين لكم انّ حضرته قد اظهر جميع أولئك الاخلاق التي حقيق بالصادق الكامل ان يظهرها ساعات العسر والمحنة كمثل التوكل وثبات الجأش وعدم الكسل في الواجبات وعدم الخوف والجبن والجزع والفزع ـ لقد اظهر جنابه امثال هذه الاخلاق كلها بطريق خارق حتى صدق وشهد به

الـكفار بما رأوه فيه من الاسـتقامة واحتمال الشدائد مالا يستطيعه احد اصلا بدون التكلان الاتم على الله سبحانه وتعالى . فلما ان جاء العصر الثاني عصر السلم والغلبة والفتح والثروة انبجس من حضرته كذلك من شمائل العفو والمرحمة والجود والاحسان والشجاعة والجلد اعلاها بحيث انه لما شهد الـكفار اياها اسلم منهم كثيرون وان المسيئين المتعنتين عفا عنهم حضرته وان الذين طردوه من الوطن فقد امنهم على أنفسهم وان المعوزين البائسين منهم اغناهم غنيانا فرطا وانه سامح اعدا اعدائه بعد ان تمكن من رقابهم . فمما شاهده الناس من اخلاقه اقروا له بأنه لا يمكن لاحد ان يبدي هـكذا الاخلاق مالم يكن بالحقيقة صادقاً ومن عند الله ومن جراء هـذا السبب تسلت بالمرة الضغائن القديمة عن صدور الاعداء

أكبر خلق من أخلاق سيد الرسل

ان اكبر خلق اثبته سيد الرسل على رؤوس الاشهاد هوما يذكره القرآن المجيد كما يلي : قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (٦ : ١٦٣) : أي انه وقف

كل ذلك لاعلاء كلمة الله وبتبجيل شأنه واظهار جلاله ولاراحة عباده من ويلات الحياة الدنيا ولكى يحيا الناس بتفانيه الحياة الابدية وما ذكرها هنا من امر الموت في سبيل الله وعلى شأن مصلحة الناس لا يوهلن منه أحد الي انه ـ وحاشاه ـ كان قد نوى الانتحار كالعثل والمجانين تخيلا وتقديراً منه انه ربما الانتحار بواسطة آلة من آلات القتل ينفع غيره . كلا بل ان حضرته كان يمقت هذه السفاسف مقتاً شديداً وان القرآن الحكيم على مرتكب هذه الجناية بكونه مجرماً عظيماً مستحقاً للعقاب وينهانا عنه بقوله : ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة : (٢ : ١٩١) ثم الظاهر ان زيداً ما هو عاملا لخالد عملا حسناً ان لو قام وشدخ رأس نفسه حناناً عليه من اجل ان خالداً يشكو المغص بل وانما يجرح زيد راسه سفاهة من غير جدوى . لكان العمل الصالح حينذاك اذ لو مرضه وقام بخدمته احسن القيام واستحضر له الادوية الناجعة وعالجه طبق القواعد الطبية واما ان شدخ رأسه فلم يستفد به خالد شيئاً بل ان زيداً بالعكس أوجع

عضواً شريفاً من جسد نفسه على غير شيء فعليه ان المراد من الآية المذكورة انه عليه الصلاة والسلام كان بالحقيقة وقف نفسه لتعزية بني نوعه وترفيه بالهم عن محض الشفقة وبمعاناة الشدة وكان ضحى راحته وحيانه كلها في هذا السبيل بالدعاء والنصيحة وبالصبر والاغضاء على جورهم وجفائهم وبكل اسلوب حكيم. يقول الله جل شأنه : لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين (٢٦ : ٢) فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٣٥ : ٩) أي انت مهلك نفسك عن الكآبة والكأداء التي انت تكابدها من أجل الناس وهل انت قاض على حياتك اسفاً على شأن هؤلاء الذين لا يقبلون الحق

الفارق بين التضحية الحقيقية والانتحار

الا ان هذه هي الطريقة المثلى في التضحية النفسية في سبيل الامة بأن يتحمل الانسان على نفسه الشدة لمصلحتهم وفقاً للنواميس الالهية النافذة وان يبذل لهم الحياة باتخاذ التدابير الناجعة الملائمة للمقصود ولا ان يتناول حجرا ويرضخ به رأسه وان يبلع سم الفار بقدر درهم ويرحل

والضلال الكبير والحالة الخطرة ثم يحسب انه قد نجا قومه بفعلته التي فعلها وما عيها بعمل الرجال ان هي الا من خلال النسوة ولم يزل هكذا دأب الجبان المستطار الهلعة انه سرعان ما يعمد الى الانتحار عند ما يرى المصيبة مما لا يطاق احتماله ان كهذا الانتحار ـ مهما يقال في تأويله بعد ـ هو لا ريب شنار للعقل والعقلاء

المقام المحمود في الاخلاق الفاضلة وصاحبه

ثم الظاهر أيضا ان من لم تسنح له فرصة الانتقام قط فليس صبره وقعوده عن المدافعة مما يعتبر في شيء من الاخلاق فانه لو تمكن من القصاص ما أدراكم أيما فعل وقتئذ . كلا لا تظهر الاخلاق كما هي حتى تدور على الانسان دائرة البؤس والشدة وحتى تدول له دولة القدرة والغلبة والثروة والرخاء . لا يخفى ان الذي يموت صفعاً وبكعاً من أيدي الناس في حالة الضعف والهوان والعجز والخذلان وما يتاح له يوماً ان يرى عهد الحكومة

والاقتدار والثروة والغناء فانه لا يثبت من أخلاقه شيء كما انه لا يثبت عنه أكان جسور القلب ام خواراً ان هو لم يحضر حومة الوغى . ما يمكننا ان نبدي في أخلاقه رأياً اذ لما نعجم عوده . ما أدرانا بما عامل اعداءه ان لو قدر عليهم وهل ادخر المال ام اعطاه للناس ان كان غنياً ام هل أسلم رجليه للارياح الاربع أو استبسل كالكمأة البسل اذا ما كان في ميدان القتال . على ان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قد أتاح الله له بفضله ورحمته مواطن الاخلاق بأجمعها فاظهر الجود والكرم والشجاعة والحلم والعفو والعدل كلاً في محله بأحسن ما يكون بحيث انه عبث ان نطلب نظيره على وجه البسيطة لقد برهن جنابه للملأ كلهم في حالتيه كليتهما في الضعف والقدرة والبؤس والرخاء انه ما أسهى ما كانت عليه ذاته المقدسة من الشمائل الحميدة . لم يكن خلق من مكارم الاخلاق البشرية الا وقيض الله لحضرته الفرصة الملائمة لصدور ذلك الخلق فاضحت الشجاعة والسخاوة والثبات والاستقامة والعفو والحلم وما سواهامن

الاخلاق الفاضلة أوضح واضحة بحيث ان البحث عن مثيلها في هذه الدنيا طلب المحال

حقيقة الغزوات الاسلامية

أجل حق ان الله ما افلت بدون العقاب أولئك الذين ابلغوا الظلم الحد الاقصى وكانوا يريدون استئصال الاسلام من شأفته لان ترك الظالمين من غير العقاب كان بمثابة قتل الصادقين تحت ارجلهم . كلا ما كان المقصود من غزوات سيد الرسل القتل والاثخان في الناس عسفاً واعتباطاً بل انما كان ذلك بانهم كانوا اخرجوا من ديارهم التى نشأوا في ربوعها وقتل ظلما كثيرون منهم رجالا ونساء وكانوا لا يكفون عن الحيف والعدوان بل صدوا عن الاسلام وحالوا بينه وبين انتشاره في مشارق الارض ومغاربها وردوا عليه ، لذلك اقتضى ناموس الحفيظة الربانية ان يحفظ المظلومين من المحو الناجز فقطع دابر القوم بسيفهم ولم يمتشق الحسام في وجوه أولئك الذين امتشقوه . وبالجملة ان كانت حروبه تلك الا قمعاً لفتنة القتلة السفا كين وعلى

سبيل الدفاع عن الشر وانها كانت وقت ما كان الناس يرومون القضاء على اهل الحق . فلو ما كان الاسلام يتنازع حينئذاك بوسائل المحافظة عن نفسه كان وقع مضرب السيف الوف من النساء والولدان من غير حق ولكان أمحي الاسلام في آخر الامر

أغلوطة فاحشة في تقدير الهداية الربانية

انه لعمري تعنت عظيم وغبن فاحش من خصمائنا انهم يظنون ان هدى الوحي الرباني ينبغي ان يربأ بنفسه على كل حال من عما شأنه التعليم بمقاومة العدو وان ينم عن رحمته ومحبته دائماً ابدا بالحلم والحنان . يحسب أولوا الناس انهم يكرمون الله اكراماً عظيماً اذ يقصرون صفاته الكاملة كلها على الحلم والرأفة فقط ! بيد ان المفكرين في نفس الامر بامعان وتدبر تنكشف عليهم الحقيقة بسهولة ويرون ان هؤلاء الناس في شقاق كبير واغلوطة فاحشة

رحمة الله ومظاهرها

اننا اذا أجلنا النظر في ملكوت الكون ونواميسه تحقق

لنا جلياً واضحاً ان الله سبحانه وتعالى ـ لا شك ـ رحمة للدنيا محض الا ان رحمته هـذه ما تظهر بصورة اللطف والرفق دائماً أبداً على كل حال بل قد يرشفنا أحياناً شراباً زلالا واحياناً يطعمنا دواء مراً ـ كالطبيب الحاذق ـ عن اقتضاء رحمته الكاملة بل وان رحمته بنا كرحمة أحدنا على جثته كلها . لا مراء اننا كلنا نحب جثماننا جمعه ولن اراد احداً ان ينتف منه شعرة واحدة از بأرنا له أشد الازبئرار ومع ان لنا بجسدنا اشرة حيا مجزؤا فيما بين جميع اجزاء البدن كل عضو منه محبوب لدينا بالحقيقة لا نبغي لاحد ضرراً مطلقاً ـ فلسنا نحب جميع الاعضاء سواء بدرجة واحدة كما هو ظاهر بالبداهة بل وتغلب فينا محبة الاعضاء الرئيسية الشريفة التي هي نياط مقاصدنا لحد كبير . وكذلك ترى اننا نحب مجموع الاعضاء أكثر مما نحب عضواً فرداً لذلك فمتى اقتضى الحال وأصبحت سلامة عضو شريف موقوفة على جرح عضو آخر ادنى منه أو على بتره وكسره فاننا نستمد لذلك بلا تأمل ابقاء على الحياة نعم نتألم اذ ذاك في أنفسنا من جراء

اننا نجرح أو نقطع عضواً من اعضائنا عزيزاً ولـكن رغم ذلك نضطر اليه مخافة ان يسري عدوى فساده فيتلف معه عضواً آخر شريفاً . فمن هـذا المثال اعلموا ان الله تعالى كذلك حين يرى ان اصدقائه هالكون في ايد ارباب الباطل وان الفساد مزداد يدبر الامر المناسب اما من السماء واما من الارض - لانقاذ الصديق وحسماً لجرثومة الفساد فانه حكيم ايضا كما هو رحيم والحمد لله رب العالمين